الفصل الرابع

الغُلاة والمعتدلون

مقياس الغلوّ والاعتدال

قبل الحديث عما أردت بالمغالين والمعتدلين، وعن المقياس الذي أزن به الغلو والاعتدال، أوضح ما يلي:

للوجود عالمان: عالم المشاهدة، وعالم الغيب، عالم المشاهدة محدود وإن اتسعت أبعاده وعالم الغيب غير محدود ولا متناه لا يمكن إدراك أبعاده غير المحدودة، ولا إدراك امتداده غير المتناهي، بقوانا المحدودة، لقاعدة منطقية مسلمة، وهي المحدود لا يدرك غير المحدود.

لكن حسب الهدي الإسلامي - يمكن تصوره والاقتراب من إدراكه بواسطة الاعتبار الذي هو استنباط المجهول، من العلوم، وبواسطة التأويل الذي هو ثمرة الاعتبار المنتج، وقد أمرنا الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم باعتماد هذه الواسطة عسانا نقترب من الإدراك المؤدي إلى المعرفة الحقّ فقال: ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾[1] وقال: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾[2].

---

(1) سورة الحشر آية 2.

(2) سورة النساء آية 59.

والاعتبار ـ كما جاء في أقوال المفسرين ـ (هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها)[1].

والرد إلى الله والرسول هو القياس. وهو أقوم وأحكم نوع من أنواع التأويل. والأمر في الآية باستعمال القياس فيما لا نصّ فيها. هو كما جاء في بيان المفسرين: قول عام في كل واقعة لا نص فيها وبذلك فللخروج من التنازع ومن اختلاف الآراء، وتضارب الأنظار ينبغي الرجوع إلى القياس أي قياس حكم غير المنصوص عليه على حكم المنصوص عليه بواسطة الكتاب أو السنّة، أو الإجماع، وهذا أحسن نوع من أنواع التأويل حسب الهدي القرآني الوارد في قوله: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ قال الفخر الرازي في تفسيره له: أي ذلك الذي أمرتكم به في هذه الآية خير لكم وأحسن عاقبة لكم لأن التأويل عبارة عما إليه مآل الشيء ومرجعه وعاقبته[2]. ولكن الإنسان في تأويله بواسطة الاعتبار، هل في إمكانه أن يصل بما عنده من وسائل الإدراك الحسية منها وغير الحسّية إلى إدراك الحقيقة التي على دعائمها أقيم بناء عالمي الغيب والشهادة، أو ليس في إمكانه ذلك إلّا إذا استعان ـ زيادة عما يملكه من قوى إدراكية ـ بقوة أخرى غير متناهية تنير السبيل أمام قواه الإدراكية المتناهية، وتخرجها من منطقة عجز الإدراك إلى فسحة يقين المعرفة؟.

ولتوضيح الرؤية حتى لا تتعثر الإجابة أحوصل مفهوم المعرفة وأحدد طرقها.

فالمعرفة في مفهومها العام هي إدراك الوجود على حقيقته إدراكاً يكون عن طريق الحواس في بعض الموجودات، وعن طريق العقل في البعض الآخر. وعن طريق الإلهام والإشراق الباطني فيما غاب عن الحواس، وعجز عن إدراكه

(1) التفسير الكبير للرازي (مج 29 - 30) ج 29 ص 282 الطبعة الثانية، الناشر دار الكتب العلمية ـ طهران.

(2) التفسير الكبير للرازي (مج 9 - 10) ج 10 ص 125.

العقل، وعن طريق الوحي المنزّل الذي خصّ الله به أنبياءه ورسله. وعنده تنتهي طرق المعرفة إذ لا طريق أشمل وأعمق، وأسمى منهجاً، وأصدق حكماً، وأجدى وأوسع عطاء منه. وإليه ينتهي العقل الواعي الرشيد فيطلب السدد منه، ويستسلم إليه، حتى يوضح الرؤية في جميع ما يتناوله الإنسان بمدركاته الذاتية، وينير له السبيل إلى معرفة كل ما عجز عن إدراكه بها، مما تجاوز حدود معطياته الحسّية والعقلية، والإلهامية الإشراقية وكان من الغيب الذي لا يعلمه عن حقيقته إلا الله أو من أراد أن يطلعه عليه من عباده المصطفين.

ورغم ما يفرضه واقع الوجود من عدم حصر المعرفة في طريق واحد من طرق معرفة الإنسان الذاتية الحسّية منها أو العقلية أو الإشراقية فإن أصحابها انقسموا إلى طوائف: طائفة حصرت المعرفة في ميدان الحسيات فقط، إذ حسب رأيها: ما يستنتجه العقل، وما يقع في روع الإنسان من إلهام وإشراق هو حصيلة ما ينتهي إليهما من معلومات الحواس كالمرئيات والموسوعات وغيرهما. وليس للعقل ولا للقلب من جدوى سوى أنهما يعكسان ـ كل حسب طريقته ـ ما تعطيهما الحواس، وطائفة حصرت المعرفة في ميدان العقليات لأنها ترى أنه لولا تنظيم العقل لمدركات الحواس، ولولا استنتاجه وحكمه لما كان لمدركات الحواس من معنى ومن نتائج في مجال المعرفة.

وطائفة حصرت المعرفة في ميدان التصور والتصديق الباطنيين لأنها تعتقد إنما تأتي به الحواس، وما يأتي به العقل لا يعدو أن يكون من قبيل المدركات النسبية التي لا تتم عندها المعرفة، ولا يحصل بها اليقين، وأن الحواس والعقل وإن كانا وسيلتين من وسائل إدراك الحقائق النسبية في عالم الطبيعة، وفي عالم النظريات المتصلة بها والمجردة منها. فهما عاجزان عن أن يمدّا الإنسان بالمعرفة التامة، أو أن يسموا به ليقترب من مجال الحقيقة المطلقة، لأن غير المحدود لا يدرك بالمحدود، وأن الوسيلة الوحيدة لإدراك ذلك إنما هي وسيلة التصور والتصديق الباطنيين المعبر عنهما بالإلهام والإشراق وأن هذه الوسيلة وإن

كانت لم تتحقق لجميع الناس فقد تحققت للبعض، ويمكن ان تتحقق لغيرهم من أهل الذوق والإلهام.

ورأيي أن هذه الطوائف قد ضيّقت مجال المعرفة، وجعلته لا يتجاوز دائرة رؤيتها، وحجبته عن رؤية الآخرين، وأن الوسيلة التي وسعت ما ضيّقه الناس، وقضت على محدودية الرؤية، والتي يطمئن لحكمها حسياً وعقلياً وإشراقياً هي التي وسعت بشمولها جميع وسائل المعرفة وأعني بها وسيلة الوحي المقدس التي فتحت للإنسان مجال ما عجز عن إدراكه، وأكملت له وسائل المعرفة.

والنتيجة المنطقية لهذا هي ان المنابع التي انفجرت منها وستبقى تنفجر منابع معرفة الإنسان أربعة: الحواس والعقل، والتصور الباطني الحاصل عن طريق الإلهام والإشراق، والوحي المقدس الشامل بأبعاد هديه الوجود بعالميه: عالم الغيب وعالم الشهادة.

وهي منابع لا يمكن للحياة ان تخرج عن مصبّها، ولا يمكن للإنسان عبر مسيرته الطويلة أن يستغني عن منبع منها إذا ما أراد لنفسه الكمال وناشد بمعرفته الوصول إلى برد اليقين. قال الله تعالىٰ: **﴿اقرأ وربك الأكرم* الذي علّم بالقلم* علّم الإنسان ما لم يعلم*﴾**[1].

في هذه الآية إشارة إلى أن الله تعالىٰ، قد تجاوز بالإنسان ـ تفضلاً منه وإكراماً ـ من منطقة مداركه الذاتية إلى منطقة فوقية غيبية، بواسطة ما أوحى لرسله ولخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وبوسيلة الوحي هذه وسّع أمامه مجال المعرفة من عالم الشهادة الذي في إمكانه أن يدرك أبعاده بواسطة وسائل إدراكه الذاتية المحدودة، إلى عالم الغيب الذي لولا الوحي لما أدرك البعض من أبعاده، ولما اقترب من معرفة بعض أبعاده الأخرى.

---

(1) سورة العلق آيات: 3 -4 -5.

جاء في تفسير النيسابوري حول قوله تعالىٰ: ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ قوله: ومن الآية إشارة إلى إثبات العلوم السمعية الموقوفة على النقل والكتابة بل إلى إثبات النبوّة، كما أن أول السورة يدلّ على الأوصاف الإلهية[1].

ومع هذه الحوصلة والتحديد لابدّ من الوقوف أمام معطيات النصوص التالية:

ـ من القرآن الكريم قال الله تعالىٰ: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2].

وقال: ﴿ولو أن في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾[3].

في هاتين الآيتين بيان من الله وتوجيه إلى أن المحدود مهما عظم واتسعت أبعاده هو صغير متناه أمام اللامحدود غير المتناهي، وإن وسائل المعرفة التي يمتلكها الإنسان مهما أعطت في مجال الاستنتاج والاستنباط، وفي ميدان المعرفة والعلم، وفي رحاب الاجتهاد والتأويل، هي نسبية أمام المطلق، وتنتهي دون أن تصل إلى الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. ودون أن يدرك ما في قدرة الله وعلمه من عجائب لا نهاية لها.

قال الإمام الفخر الرازي ـ مبيناً أن ما عند الإنسان من وسائل الإدراك ينتهي إلى العجز أمام ما يواجهه من عجائب لا نهاية لها يزخر بها الوجود الذي وسعه علم الله، وأحاطت بكائناته قدرته.

قال في تفسيره للآية الأولىٰ: وتقرير الكلام أن البحار كيف فرضت في

---

(1) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري بهامش: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري مج (28 - 30) ج 30 ص 125.

(2) سورة الكهف آية 109.

(3) سورة لقمان آية 27.

الاتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية، والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي[1].

وقال في تفسيره للآية الثانية ـ ذاكراً عدة أوجه لسبب نزولها ـ لما قال تعالىٰ: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾[2] وكان ذلك موهماً لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ ويكتب بها والأبحر مداد، لا تفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسّرة بالعجيبة، ووجهها أن العجائب بقوله: كن، وكن كلمة، وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز، يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، ويقال للدواء في حقّ المريض: هذا شفاؤك. ودليل صحّة هذا هو أن الله تعالىٰ سمى المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب، فإن قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا: الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره، فقال: الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالىٰ ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية، وقيل أيضاً أنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام انّك تقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[3] وتقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[4] فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل، وقيل أيضاً: أنها نزلت ردّاً على الكفار حيث قالوا: بأن ما يورده محمد سينفد، فقال: انه كلام الله وهو لا ينفد[5].

* من السنة النبوية: أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث طويل

---

(1) التفسير الكبير للرازي مج (21 - 22) ج 21 ص 176.
(2) سورة لقمان آية 26.
(3) سورة الإسراء آية 85.
(4) سورة البقرة آية 269.
(5) التفسير الكبير للرازي مج (25 - 26) ج 25 ص 156 - 157.

يشتمل على قصّة موسى عليه السلام ـ مع الخضر. منه قوله عليه الصلاة والسلام:

«فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كنقرة هذا العصفور في البحر»[1].

وفي هذه الفقرة من حوار الخضر لموسى بيان لضآلة علم البشر المحدود أمام علم الله المطلق. فعلم البشر مهما اتسعت أبعاده كاتساع علم الخضر وموسى اللذين تكرم الله عليهما بأبعاد من العلم والمعرفة لم تكن في تناول غيرهما من البشر الا من منّ الله عليه من الأنبياء والرسل، هو قليل وضئيل كضآلة نقرة طائر من ماء البحر.

ولفظ النقص الوارد في الحديث ليس على ظاهره لأن علم الله لا يدخله النقص، قال ابن حجر في كتابه «فتح الباري» أثناء شرحه لهذا الحديث:

وقال القرطبي: من أطلق اللفظ هنا تجوز لقصده التمسك والتعظيم، إذ لا نقص في علم الله ولا نهاية لمعلوماته. وقد وقع في رواية ابن جريج بلفظ أحسن سياقاً من هذا وأبعد أشكالاً فقال: «ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر، وهو تفسير للفظ الذي وقع هنا»[2] وهذا من التأويل للفظ الوارد في الحديث لبيان المعنى المراد منه حيث هو من المتشابه، المحتاج للتأويل.

ومن أقوال العلماء والفلاسفة المسلمين:

قال الإمام الغزالي[3] في كتاب «القسطاس المستقيم» أثناء رده ومناقشته

---

(1) صحيح البخاري كتاب العلم: باب ما يستحب للعالم اذا سئل أي الناس اعلم فيكل العلم الى الله «شرح ابن حجر» فتح الباري ج 1 ص 217`218.

(2) ابن حجر «فتح الباري» ج 1 ص ٢٢٠.

(3) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: العلامة الإمام حجة الإسلام ولد في مدينة طوس من مدن =

لرفيق من رفقاء أهل التعليم «الاسماعليين» وهو يجيب عن سؤاله له: فبماذا تزن معرفتك؟ ـ قلت أزنها بالقسطاس المستقيم، ليظهر لي حقها وباطلها ومستقيمها ومائلها اتّباعاً لله تعالىٰ، وتعلّماً من القرآن المنزّل على لسان نبيّه الصّادق حيث قال: ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾[1] فقال وما القسطاس المستقيم؟ قلت: هي الموازين الخمسة التي أنزلها الله تعالىٰ في كتابه، وعلّم أنبياءه الوزن بها. فمن تعلّم من رسل الله، ووزن بميزان الله، فقد اهتدى ومن عدل عنها إلى الرأي والقياس، فقد ضلّ وتردّى، فقال: أين الميزان في القرآن؟ وهل هذا إلا إفك وبهتان؟ قلت: ألم تسمع قوله تعالىٰ، في سورة الرّحمن: ﴿**الرحمن* علّم القرآن* خلق الإنسان* علّمه البيان***﴾ إلى أن قال: ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان* ألا تطغوا في الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان***﴾[2] ألم تسمع قوله في سورة الحديد: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[3] أتظنّ أن الميزان المقرون بالكتاب، هو ميزان البرّ والشعير والذهب والفضّة؟.

أتتوهم أن الميزان المقابل وضعه برفع السماء في قوله: ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان**﴾[4] هو الطيار[5] والقبّان[6] ما أبعد هذا الحسبان، وأعظم هذا

= خراسان سنة 450هـ/ 1058م وتوفي ببلده طوس سنة 505هـ/ 1111م ودفن بمقبرة الطابران بظاهر طوس. وله مصنفات عديدة قلّ ان انتفع الناس بمصنفات احد من العلماء انتفاعهم بها. منها: احياء علوم الدين ـ المنقذ من الضلال ـ المقصد الأسنى ـ الحكمة في مخلوقات الله ـ الاقتصاد في الاعتقاد، الجامع ـ المستصفى ـ مقاصد الفلاسفة ـ تهافت الفلاسفة ـ فضائح الباطنية ـ القسطاس المستقيم.

(1) سورة الإسراء آية 35.

(2) سورة الرحمن آيات 1 - 4 و 7 - 9.

(3) سورة الحديد آية 25.

(4) سورة الرحمن آية 7.

(5) ميزان لوزن الدراهم.

(6) آلة توزن بها الأشياء الثقيلة.

البهتان. فاتّق الله ولا تتعسّف في التأويل واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته، لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلّموا هم من ملائكته، فالله تعالىٰ هو المعلّم الأول، والثاني جبريل، والثالث الرسول، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ما لهم طريق في المعرفة سواه[1].

فالغزالي في هذا النص يذهب إلى أن للإنسان قوى إدراكية، وهي طريق من طرق المعرفة لديه، لكن بما أنها مواهب وقوى محدودة وإن وصل بها إلى إدراك عالم الشهادة وما فيه ـ وهو محدود أيضاً ـ إدراكاً يصل به إلى المعرفة اليقينية في مجال الظواهر أي في كل ما هو محسوس أو ما له صلة بالمحسوس، يعني إدراك ظواهر الأشياء دون حقائقها، أو ما ورائياً يسلمه إلى الإيمان وإن لم يصل به إلى يقين المشاهدة، فهو غير قادر أن يصل بقواه المحدودة وبمواهبه المجردة إلى إدراك المطلق، ومشاهدة غير المحدود، وبهذا فهو في حاجة ـ إذا أراد أن يستكمل معرفته ـ إلى منطق الغيب، إلى الدين الذي جاء به الوحي المقدّس، ذلك الوحي الذي لولاه لما استقام لنا الميزان ولما كمل إيماننا، ولما وصلنا إلى برد اليقين، وإلى معرفة الحقّ.

وقال ابن رشد[2] تحت عنوان ـ أقسام العلوم الدنيوية والأخروية ـ :

---

(1) القسطاس المستقيم، للإمام أبي حامد الغزالي ص 42 - 43 ط اولى سنة 1959 الناشر المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ لبنان.

(2) هو الفيلسوف الإسلامي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد في قرطبة بالأندلس في بيت اشتهر بالعلم والفقه: فكان جده من أشهر أهل زمانه تضلّعاً في الفقه وقد ولي منصب قاضي القضاة في الأندلس، وكان والده قاضي قرطبة. درس ابن رشد الشريعة على الطريقة الأشعرية، والفقه على المذهب المالكي، ثم درس الطب والرياضيات والحكمة. وله تآليف عديدة بلغت خمسين كتاباً وهي على قسمين: قسم يمثل شروحه لكتب الأقدمين ولا سيما كتب ارسطو وأفلاطون والأفرودبسي. وبعض كتب فلاسفة الإسلام مثل الفارابي وابن سيناء والغزالي وابن ماجة وأهمها شرح ما بعد الطبيعة وشرح كتاب النفس وتلخيص كل من كتاب الأخلاق وكتاب السماع الطبيعي =

وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحقّ والعمل الحقّ، والعلم الحقّ هو معرفة الله تبارك وتعالىٰ وسائر الموجودات على ما هي عليه، وبخاصة الشريفة منها، ومعرفة السعادة الأخروية، والشقاء الأخروي.

والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء، والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى «العلم العملي». وهذه تنقسم قسمين: أحدهما أفعال ظاهرة بدنية، والعلم بهذه هو الذي يسمى «الفقه» والقسم الثاني أفعال نفسانية، مثل الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا اليها الشرع، أو نهى عنها، والعلم بهذه هو الذي يسمى «الزهد» و«علوم الآخرة».

ثم قال: لما كان مقصود الشرع تعليم العلم الحق، والعمل الحق، وكان التعليم صنفين: تصوراً وتصديقاً، كما بيّن أهل العلم بالكلام، وكانت طرق التصديق الموجودة للناس ثلاثاً: البرهانية، والجدلية، والخطابية، وطرق التصور اثنتين: إما الشيء نفسه وإما مثاله، وكان الناس كلهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين ولا الأقاويل الجدلية، فضلاً عن البرهانية مع ما في تعلم الأقاويل البرهانية من العسر والحاجة في ذلك الى طول الزمان لمن هو أهل لتعلمها، وكان الشرع إنما مقصوده تعليم الجميع، وجب أن يكون الشرع يشتمل على جميع أنحاء طرق التصديق، وأنحاء طرق التصور[1].

فابن رشد، وإن لم يبين لنا ان في الشريعة الإسلامية طريقاً من طرق المعرفة لا يهتدي إليه الإنسان، لا بطرق التصديق، ولا بطرق التصور لأنه

= وكتاب الكون والفساد والبرهان وكلها لأرسطو وقسم من تأليفه «كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» وكتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وتعريف بما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة «في علم الكلام» و«تهافت التهافت» هو نقض لكتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة».

(1) كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال لابن رشد ص 49 - 50.

يخرج عن مجالهما، وإنما يهتدي إليه بالاستعانة بأبعاد الوحي المقدس، التي يتلقاها من رسل الله بواسطة التوجيه المحض الذي لا يخضع لمدارك البشر ولا لسؤالهم: لم؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ حيث هو من الغيب لا يعلمه إلا الله، وليس لمدارك الإنسان البلوغ لبعض من عطائه إلاَّ بهدى من الله، وهدى من رسله الذين أطلعهم على بعض من غيبه، وكلّفهم بتبليغه إلى الناس لتتكامل عندهم طرق المعرفة والهداية، وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً* إلاَّ من ارتضى من رسول الله فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً***﴾[1].

فابن رشد وان لم يبين لنا ذلك، لأن غايته وهدفه التوفيق بين الشريعة والفلسفة. فإنه أفاد أن الشريعة أوسع من الفلسفة من حيث امداد الناس بطرق المعرفة لأنها تتجه بخطابها اليهم جميعاً على اختلاف مستوياتهم الإدراكية، العوام والخواص، وخواص الخواص لكلّ حسب مستواه وبالطريق الذي يحسن تقبله والتعامل معه، وهذا ما عناه بقوله المتقدم: (وكان الشرع إنما مقصوده تعليم الجميع وجب أن يكون الشرع يشتمل على جميع أنحاء طرق التصديق، وأنحاء طرق التصور)[2].

وقال ابن خلدون[3]: ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على

---

(1) سورة الجن آيات 26 -27 -28.

(2) كتاب فصل المقال ص 50 - 51.

(3) هو الفيلسوف المؤرخ ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون صاحب «المقدمة» المشهورة. ولد في غرة رمضان سنة 732 بتونس ونشأ بها وتخرج على يد شيوخها ثم قام برحلات عديدة فرحل الى فارس وغرناطة وتلمسان وإشبيلية والقاهرة، وهناك أكرمه سلطانها الظاهر برقوق كما رحل الى غيرها وكانت وفاته بالقاهرة سنة 808 وله تآليف في مقدمتها وأعظمها تاريخه الذي سماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ومقدمته اشتهرت في الشرق والغرب وأصبحت أشهر من أن تعرف.

الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كلّه، وسفّه رأيه، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الموجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم، والكافة لما أقرّوا به.

لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية.

فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأن ادراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾[1] فاتّهم ادراكك ومدركاتك في الحصر، واتّبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك واعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق ادراكك. ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك. وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير انك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوّة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال. وهذا لا يدلّ على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حداً يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته. فإنه ذرّة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفطن في هذا لغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من

---

(1) سورة البروج آية 20.

ذلك، وإذا تبيّن ذلك فلعلّ الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت من أن تكون مدركة، فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع. فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها، إذ لا فاعل غيره، وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه. وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: «العجز عن الإدراك إدراك»[1] في هذا النص بعد أن تأمل ابن خلدون في الوجود وفي أبعاده، وفي الإنسان وما يملك من طاقات، أعطى رأيه فبيّن أن معرفة الإنسان ضئيلة وضئيلة جداً أمام الوجود الذي هو أوسع نطاقاً من مداركه ومدركاته وأن ما يملكه من حواس تمكنه من إدراك الوجود المادي من حيث أسبابه ومسبباته قبل أن تتسع دائرة الأسباب الى مستوى تتضاءل وتتلاشى عنده قوى الإدراك. وأن ما يملكه من عقل يمكنه من التأمل والاعتبار، ومن الاستنباط والاستنتاج، ومن وزن الأشياء وزناً يؤدي إلى اليقين لأن العقل ميزان لا يشكّ في أحكامه اليقينية، لكن مع ذلك كلّه ليس في مستطاعه رغم ما له من بعد يتجاوز بعد إدراك الحواس أن يحيط علماً ومعرفة بكل الوجود، إذ نطاق الوجود أوسع من نطاق طاقته.

ولهذا فعلى الإنسان أن يسلم مقاليده ليصل إلى يقين المعرفة في مجالات الغيب مثل ذات الله في كنهها، ومثل حقائق صفاته، ومثل الآخرة وما فيها، وحقيقة النبوّة، وكل ما هو خارج عن مشاهدة الحواس وعن منتهى إدراك العقل، عليه ان يسلم مقاليد إدراكه في تلك المجالات إلى الشريعة، وإلى منبع الوحي المقدس الذي أكمل للإنسان وسائل الإدراك في كل ما عجز عن إدراكه بوسائله الذاتية التي هي أيضاً من إنعام الله عليه.

وكل من أراد تجاوز الشريعة في هذه المجالات ـ معتمداً على قواه

---

(1) المقدمة لابن خلدون نشر دار الشعب بدون تاريخ ص 424 - 425.

الإدراكية المحدودة ـ فهو واقع في محال، وطامع فيما لا مطمع فيه.

وقد وصل ابن خلدون في تأمله وبيانه، وفي استنتاجه الى مقولة هي فلسفة معرفة الإنسان في أبعد أبعادها، وهي ان الإنسان ينطلق الى معرفة الغيب، وإلى معرفة خالق الكون ومبدع الإنسان، وهي أشرف المعارف وأسماها من ذاته ومن عالم المشاهدة المحيط به ـ استمداداً من قوله تعالىٰ: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[1] فقال «وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه».

ثم ختم هذه المقولة بمقولة ثانية لا تقل في أبعادها عن الأولىٰ وهي أن عالم الغيب وإن كان للإنسان أن ينطلق له من ذاته فهو عاجز عن أن يصل إلى يقين المعرفة فيه إلا بالاستعانة والاعتماد على ما جاء به الوحي المقدّس، فقال: «وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين»: «العجز عن الإدراك إدراك».

وفي هذا المنهج سار محمد إقبال[2] فحدّد مكانة الفلسفة والعقل المجرّد من العاطفة، ومكانة القلب الزاخر بنوره وناره، ومكانة الدين بروحه وجوهره، حدّد مكانة هذه جميعاً من المعرفة، وذلك بما يملك من عاطفة شاعرية جيّاشة، وعقل فلسفي كبير، فذهب إلى أن المعرفة المستفادة من هواتف الشعر العالي الرفيع شخصية محدودة بذاتها، وأن المعرفة المستفادة من الفلسفة تنتهي إما إلى

---

(1) سورة الذاريات آيتا 20 - 21.

(1) هو محمد اقبال بن محمد نور بن محمد رفيق يرجع نسب أسرته الى براهمة كشمير. اسلم احد أجداده قبل ثلاثة قرون في عهد الدولة المغولية كبرى الدول الإسلامية التي قامت في الهند. وهو الفيلسوف المسلم الكبير جاء في مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لكتاب «محمد اقبال: سيرته فلسفته وشعره» قوله: ـ معرفاً به ـ: محمد اقبال شاعر نابغة وفيلسوف مبدع... وذكره يشيع، وصيته يذيع على مرّ الأيام ولا سيما منذ نشأت دولة باكستان وهي حقيقة تخيّلها والناس منه يضحكون ويقظة حلم بها واليائسون به يتفكهون. وقوله: محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذي وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر اجمعين. ولد في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة 1289 (22 شباط سنة 1873) وتوفي في التاسع عشر من نيسان سنة 1938.

الإنكار، وإما إلى الإقرار بعجز العقل عن إدراك الحقيقة المطلقة وفي كل من الإنكار والإقرار بالعجز لا نجد المعرفة التي في ظلها نستريح ومن منهلها نرتوي، وإن المعرفة المستفادة من الدين هي الإيمان، والإيمان مفتاح الغيب، ونور البصيرة، ومحرّر العقل من قيود المادة، ومنقذ النفس من أسر الشهوات، وبهذا المثل والمعاني السامية تتلاشى الأوهام المخدّرة، وتزول الحجب المانعة، وتتمّ المعرفة.

قال في كتابه «تجديد التفكير الديني في الإسلام». ما طبيعة الكون الذي نعيش فيه وما بناؤه العام؟ أهناك عنصر ثابت في تركيب هذا الكون؟ وكيف نكون بالنسبة إليه؟ وأي مكان نشغله منه؟ وما نوع السلوك الذي يتّفق وهذا المكان الذي نشغله؟ هذه المسائل مشتركة بين الدين والفلسفة والشعر العالي الرفيع. غير أن المعرفة المستفادة من هواتف الشعر شخصية بالضرورة في نوعها وفي طبيعتها.

وهي مجازية مبهمة غير محددة.

والدين في أكمل صوره ـ يسمو فوق الشعر، فهو يتخطى الفرد إلى الجماعة؟ وفي موقفه من الحقيقة الكلية يتعارض مع عجز الإنسان وقصوره. فهو يفسح مطالبه ويستمسك بأمل لا يقلّ في شيء عن شهود الحقّ شهوداً مباشراً. فهل من الممكن إذن أن نستخدم في مباحث الدين المنهج العقلي البحت للفلسفة؟ إن روح الفلسفة هي روح البحث الحرّ، تضع كل سند موضع الشكّ، ووظيفتها أن تتقصّى فروض الفكر الإنساني التي لم يمحصها النقد إلى أغوارها، وقد تنتهي من بحثها هذا إلى الإنكار أو إلى الإقرار في صراحة بعجز التفكير العقلي البحت عن اكتناه الحقيقة القصوى، أما جوهر الدين فهو ـ على عكس هذا ـ الإيمان، والإيمان كالطائر يعرف طريقه الخالي من المعالم غير مسترشد بالعقل. وفي هذا يقول شاعر الإسلام الصوفي العظيم[1]: «العقل

(1) لعلّه يريد: جلال الدين الرومي.

يترصد قلب الإنسان النابض ويحرمه ذلك الزخر من الحياة الكامنة فيه».

على أننا لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أمر أكثر من مجرد الشعور، فهو في حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة[1].

فما قاله في آخر الفقرة عن الإيمان وهو قوله: «فهو في حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة» يستنتج منه أنه يذهب إلى أن المعرفة الآتية من الدين عن طريق الإيمان ليست معرفة شعورية إلهامية كما يذهب البعض بل هي معرفة آتية من الإنسان من مداركه التي تمدّه بواسطة المعاينة والمشاهدة. وبواسطة التأمل والتدبر والاعتبار، أي بالاستقراء والتتبع فيما يستقرأ ويتتبع، وبالأدلّة المنطقية والبراهين العقلية فيما يخرج عن مجال المعاينة والمشاهدة، ثم آتية من عالم الغيب بواسطة الوحي المقدّس، عندما ينتهي المدد عن وسائل الاستقراء والتتبع، ويصل العقل إلى النهاية التي ليس مستطاعه أن يتجاوزها. وبإتيان المعرفة من هذين الطريقين يحصل للإنسان وضوح العلم ويقين المعرفة، وبذلك ترتاح النفس، ويطمئن القلب وهذا هو الإيمان، وهو عطاء الدين الذي يسمو في مجال المعرفة الحقّ عن عطاء الشعر العالي الرفيع، وعن عطاء الفلسفة بمنهجها العقلي المجرّد. فبعد حوصلة مفهوم المعرفة وتحديد طرقها ـ وهو عمل ضروري وأكيد لبيان ما أردت بالمغالين والمعتدلين، ولتوضيح المقياس الذي أزن به الغلو والاعتدال، أعود فأقول:

المعتدلون هم الذين التزموا في تأويلهم لآي القرآن الكريم بعطاء طرق المعرفة بجميع وسائلها سواء منها الحسّية، أو العقليّة، أو الإشراقيّة أو طريق الوحي المقدّس الحاكم عليها جميعاً. والفاتح لها باب كمال المعرفة الذي هي عاجزة عن الولوج إليه بمفردها، وبما عندها من طاقة ذاتية فكل من لم يتجاوز

---

(1) كتاب تجديد الفكر الديني في الإسلام «للفيلسوف محمد إقبال ص 5 - 6 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة 1955.

في تأويله لآي القرآن الكريم مدد الوحي المقدّس فسلّم إليه ما انتهى إليه بوسائله الذاتية واستسلم لحكمه، وآمن بعطائه اللامحدود في مجال كمال المعرفة وتمام الإدراك وذلك عندما يستنفد العقل طاقته الإدراكية، فهو من المعتدلين، وأما المغالون فهم الذين تجاوزوا في تأويلهم لآي القرآن الكريم منهج الوحي المقدّس الذي أبان للعقل حدوده، وأنار له سبيل المعرفة الحقّ وأباحوا لأنفسهم تجاوز حدود الإدراك الذاتي في تأويلهم، وأسقطوا من حسابهم مدد الوحي المقدّس فيما وراء مجال العقل وهذا الاسقاط عندهم على نوعين:

اسقاط يمثل اهداراً لضوابط المعرفة حسب المنهج الحق، وهدماً لمقاييسها طلباً ـ حسب هواهم ـ لتحديد اللامحدود، ولانهاء غير المتناهي بدعوى أن ليس وراء إدراكهم الذاتي إدراك.

وهذا نوع من التأويل المتعالي في مجال الافتراض الضبابي الذي لا يؤمن أصحابه بالحدود الفوقية، ولا يؤمنون بمقولة التحديد المفروض.

وإما إسقاط يمثل تضييقاً لضوابط المعرفة، وتوهيناً لمقاييسها، واخراجها من مجال الشمول، ومن ميدان الإحاطة إلى نوع من التأويل المتدني الهابط الذي يعاكس نوع التأويل المتعالي الافتراضي الضبابي وإن كان من جنسه في الإسقاط ـ وذلك خدمة منهم لمذاهب خاصة منغلقة ولتيارات غير مستقيمة يقودها الهوى، ويستقطبها التعصب.

فأصحاب التأويل الإسقاطي بنوعيه: المتعالي الضبابي، والمتدني الهابط هم المغالون. ومن وحي هذه النظرة أستنتج مقياس الاعتدال والغلو.

التأويل الذي سنده صدق المشاهدة والمعاينة. وعمق التأمل والتدبر، وسلامة النظر والتفكير، وجدّية الهدف والغاية. والإيمان بالوحي المقدّس، وبأن طريقه في المعرفة هو المهيمن وهو الحكم العدل على جميع الطرق الذاتية للإنسان والإحاطة ـ علماً ومعرفة ـ بعطاء هديه وشريعته، ثم التسليم له

والاستسلام لأحكامه وأنبائه وأخباره في جميع المجالات التي يعجز الإنسان عن ان يصل إلى معرفتها وإدراكها بوسائله الذاتية.

فالتأويل الذي سنده هذا هو التأويل الذي يمثل الاعتدال، والذي يكون مقبولاً عند أولي العلم والمعرفة، ترتاح له النفس ويطمئن له القلب، ويسلم به العقل الرشيد.

والتأويل الذي تجاوز الحدود ـ تعالياً أو تدنياً ـ كما ذكرت ـ والذي سنده الهوى والشهوات، ودافعه خدمة المذاهب المنحرفة أو المنغلقة، وخدمة التيارات غير المستقيمة والضالة، وهدفه العناد والتعصّب المذموم. هو التأويل الذي يمثّل المغالاة، وهو مرفوض من أهل العلم والمعرفة، لا ترتاح له النفس التي تنشد الحقّ ولا يطمئن له القلب العامر بالإيمان، ولا يسلم به العقل الواعي الذي لا يرضى بيقين المعرفة بديلاً.

ولتوضيح هذين النوعين من التأويل أقف قليلاً أمام القصة القرآنية ـ وهي ميدان واسع من ميادين التأويل في القرآن ـ أقف بقدر ما أوضح التأويل الذي يمثل المغالاة والتأويل الذي يمثل الاعتدال حسب مقياس الاعتدال والغلو الذي استنتجته آنفاً.

فمن وضع القصة القرآنية في إطارها القرآني، وهو أن القرآن كتاب عقيدة وهداية وتشريع من لدن ربّ العالمين إلى الناس كافة من بعثة محمّد عليه الصّلاة والسّلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي هذا الإطار فالقرآن كتاب دعوة دينيّة قبل كلّ شيء ولم يكن في قليل منه أو في كثير كتاب قصص فنّي حسب مقاييس علماء هذا الفنّ من الشرق أو الغرب لأنه فوق مقاييسهم المتغيرة بتغيّر تصوراتهم وتخيّلاتهم، والمتلوّنة بتلوّن فروضهم ومخططاتهم.

كما لم يكن كتاب علوم أو تشريح، أو فلسفة، أو منطق، أو نحو أو صرف، أو بلاغة أو غير ذلك.

ومن عقيدته وهديه وتشريعه استنتج العلماء المسلمون سائر العلوم الإسلامية من فقه وأصول، ومن كلام وفلسفة، ومن تاريخ وبيان لمراحل حياة البشر، ولأنبائهم وأخبارهم، ومن علوم إنسانية وحياتية في مختلف أنواعها، ومن علوم ما ورائية في أعمق وأوسع أبعادها، وفي كل ما يتعلق بحياة الإنسان في مسيرته في عالم المشاهدة، وفيما ينتظره في خاتمة مطافه ومصيره في عالم الغيب.

وبذلك القرآن دستور للحياة الإنسانية في مختلف أطوارها وأحوالها، وفي مختلف علاقاتها الرّوحيّة والجسديّة. فرديّة كانت أو جماعيّة.

فمن تعامل مع القرآن في حدود إطاره هذا، وعلى أنه وحي من الله إلى الناس كافة، وعلى أنه مقياس لهم في كل أمر من أمورهم، وفي كل شأن من شؤونهم، وليس هم وما يفعلون، وما يصنعون مقياساً له. فمن تعامل مع القرآن في حدود هذا الإطار، وفي ابعاد هذا المنهج كان من المعتدلين وكان لعمله وصنيعه وتأويله قيمة ووزن.

ومن تعامل معه في غير هذا الإطار، وفي غير هذه الأبعاد وأراد منه أن يخضع لموازين البشر النابعة من تصوراتهم وتخيلاتهم المحدودة، ومن شهواتهم وأهوائهم كان من المغالين المتجاوزين للحدود الذين ليس لعملهم وصنيعهم وتأويلهم وزن ولا قيمة.

وأيضاً فمن تعامل مع القصة القرآنية على أنها وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها القرآن لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء حياة الفرد والمجتمع على الاستقامة، وان القصة التي ترد في القرآن لا تختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه للناس وانها لم يكن الغرض منها سرد تواريخ الماضين بتفصيل،

وذكر أطوارهم وشؤونهم وأحداثهم بكل ملامحها الجزئية، وبكل ملابساتها النوعيّة، ولكنها للعظة والاعتبار، ولاستعداد الأحكام، ولبناء الخطة التي على الإنسان أن يتبين أهدافها من وراء أبعاد القصة القرآنية فيتراءى له المنهج المستقيم فيتّبعه، والطريق المعوجّ فيتجنّبه.

ومع هذا فما من إشارة زمانية أو مكانية أو بيئيّة أو حادثة حياتيّة أو صراع مادي أو روحي، أو تصادم واختلاف، أو تلاحم واتفاق بين الفئات والطوائف، أو بين الشعوب والأمم، إلا وهي حق سواء كانت من الأنباء التي وقعت بالفعل أو من الأخبار التي أثبت أو يثبت صدقها واقع الحياة والناس أو سيثبت صدقها مستقبلها، لأن صاحب القصة في القرآن وبانيها هو من اجتمع الزمن وتوحد المكان واجتمعت الأحداث والقضايا في علمه لا يفصلها الزمن بوحداته الثلاث: الماضي والحاضر والمسقبل، ولا يتقاسمها المكان بوحداته الستّ: أمام وخلف، ويمين وشمال، وفوق وتحت، ولا تتشعب بها الأحداث مهما تكاثرت ولا تتطوّح بها القضايا مهما تنوعت.

فالقصّة التي صاحبها وبانيها خالق الكون، ومبدع الإنسان، خالق الزمن والمكان وصانع بقدرته وإرادته المطلقتين الأحداث والقضايا من بدايتها إلى نهايتها ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾[1] لا تقاس بأقيسة الناس ولا تعيّر بمعاييرهم، وذلك لأنها مقاييس ومعايير نابعة عن عقول محدودة تغيّر رأيها حيناً بعد حين، ومن عواطف متلوّنة لا تستقر على حال من الأحوال.

جاء في كتاب «التعبير الفني في القرآن» تحت عنوان: القصة في القرآن ما يلي:

يعرّف بعض المؤلفين القصّة الفنّية بقوله: «هي عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثّرت بها مخيّلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في

(1) سورة الروم آية 27.

صدره، فأراد أن يعبّر عنها بالكلام، ليصل بها إلى أذهان القرّاء، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه[1].

فالقصة القرآنية لا تدخل في قسم من أقسام الفنّ القصصي من ناحية القالب والمظهر حسب مصطلحات علماء الفنّ القصصي لأنها من القرآن، والقرآن في لغته وفي أسلوب تعبيره وفي أحكام نسجه، وفي بلاغة نظمه، وفي روعة صوره وتصويره فوق ما عند البشر من أساليب ومناهج ومن طرق تعبير. ومما اصطلحوا عليه بالفن القصصي، أو فنيات القصة، وما حدّدوه لذلك من أقسام وعناصر.

ويعجبني، لاخراج القصة القرآنية من مصطلحات أهل الفنّ القصصي ما ذهب إليه صاحب كتاب «التعبير الفني في القرآن» من بيان وتوضيح لهذا الموضوع فقال:

ويقسم الفنّ القصصي من ناحية القالب والمظهر، إلى أربعة أقسام:

1 ـ **الأقصوصة**: وهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من حياة، لا كلّ جوانب هذه الحياة، فهو يقتصر على سرد حادثة، أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقلّ بشخصياته ومقوماته، على أن هذا الموضوع مع قصره يجب أن يكون تاماً ناضجاً من وجهة التحليل والمعالجة، ولا يتهيّأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصي، إذ إن المجال أمامه ضيّق محدود، يتطلب التركيز الفني.

2 ـ **القصّة**: وتتوسط بين الأقصوصة والرواية، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولىٰ، فلا بأس هنا أن يطول الزمن، وتمتد الحوادث، ويتوالى تطورها في شيء من التشابك.

---

(1) كتاب «التعبير الفني في القرآن» لمؤلفه الدكتور بكري شيخ أمين، الناشر دار الشروق، الطبعة الأولىٰ سنة 1393هـ/ 1973م ص 213. وقد علق على هذا القول المتضمن للتعريف بقوله: (1) محمود تيمور فن القصص 12.

3 ـ **الرواية**: وفيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملاً أو أكثر. زاخراً بحياة تامة، أو أكثره فلا يفرغ القارىء منها إلا وقد ألمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة.

4 ـ أما الحكاية فهي سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خياليّة لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه.

ويفرض العلماء في القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هي:

الموضوع والشخصيات، والحوار، ثم يصفون بدقّة شروط كلّ من هذه العناصر ويبيّنون أنواع الخللّ التي تطرأ عليها فتحيلها من قصة فنية إلى غير فنيّة ومن القواعد التي يقرّرونها:

1 ـ أن تكون للقصة وحدة فنية.
2 ـ أن يراعى في عرضها جانب التلميح ما أمكن.
3 ـ أن يعنى كاتبها برسم شخوصه.
4 ـ أن يكون للقصة هدف ومغزى.
5 ـ ألا تظهر فيها الموعظة أو الحكمة ظهوراً مباشراً.
6 ـ ألا تخلو من عنصر التشويق.
7 ـ أن يكون أسلوبها طبيعياً لا هو بالمتهافت، ولا بالبالغ الصعوبة.

تلك هي الأقسام والعناصر الأساسية في كل قصة فنية، كما اتفق عليها معظم النقاد، وجهابذة هذا الفن.

وإن جئنا نستعرض ما ورد في القرآن الكريم من قصص وجدنا معظمها ـ إن لم نقل جميعها ـ يخرج عن الحدود التي رسمها النقّاد للقصة الفنية، وتتمرد عليها ولا تندرج تحت لوائها.

ان تعريف القصة ـ كما تواضع عليها كثير من رجال فنها ـ لا ينطبق كل الانطباق على مفهوم القصة القرآنية، فهي: أولاً: ليست خاطرة في ذهن الله، ولا هي، ثانياً ـ تسجيل تأثرت بها مخيّلته، ولا هي ثالثاً ـ بسط لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبّر عنها بكلام ليحدث أثراً في نفوس القارئين مثل أثرها في نفسه. وليست القصة القرآنية لوناً من ألوان الأقصوصة أو القصة، أو الرواية، أو الحكاية بالمعنى المتواضع عليه، كذلك فهي لا تحمل من العناصر الفنية ما حمّلها نقّاد العصر الحديث. نعم، قد تتفق بعض القصص في جملتها، أو في بعض أجزائها وما قرّره العلماء لكن ذلك لا يعني أن هذه القصة، أو هذا الجزء هو القسم الناجح، وما عداه يقع دونه مرتبة، وفنّية[1].

وبعد هذا القول الذي يتّضح منه أن صاحبه لم يغترّ بمقولات ومصطلحات علماء الفنّ القصصي، وبما فيها من جاذبيّة وجمالية فيحكمها في القصة القرآنية ويخضعها لقوانينها، ومنهج تخطيطها.

لم يغترّ بذلك لأنه يعلم ويؤمن بأن القصة القرآنية إذا ما أخرجت من إطارها القرآني، وابتعد بها عن مسارها الإلهي وعن منبعها ومصدرها الـذي هو الوحي المقدّس الذي ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[2] تلاعب بها الناس الذين سلموا مقاليدهم لهواهم أو للتيارات الهدّامة والمذاهب الضالة، وحكموا فيها موازينهم المتلونة والمتلاعبة التي لا ثبات لها ولا استقرار والتي تقودها الشهوات، ويوجهها الهوى.

بعد هذا القول وما يتضح منه أذكر نموذجين لبيان متى يكون التأويل في مجال القصة القرآنية يمثّل الاعتدال، ومتى يكون يمثّل الغلو؟.

النموذج الأول: قد اخترته من كتاب «منهج الفن الإسلامي» وقد مهّد المؤلف لهذا النموذج بقوله:

---

(1) كتاب «التعبير الفني في القرآن» ص 213 - 214.

(2) سورة فصلت آية 42.

أما الخصائص الفنية، ففي فصل «القصة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن» حديث مفصل عنها لا أجد بأساً من تلخيصه في هذه السطور.

أولى هذه الخصائص الفنية تنوع طريقة العرض:

فمرّة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها.

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة من أولها وتسير بتفصيل خطواتها.

ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني.

ومرة يحيل القصة تمثيلية، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبّه إلى ابتداء العرض ثمّ يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها. وثانية هذه الخصائص تنوع طريقة المفاجأة.

فمرّة يكتم سرّاً لمفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معاً في آن واحد.

ومرة يكشف السرّ للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عماية. وهؤلاء يتصرّفون وهم جاهلون بالسرّ، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين؟.

ومرة يكشف بعض السّر للنظارة وهو خاف عن البطل في موضع، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة.

ومرّة لا يكون هناك سرّ، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرّها في الوقت ذاته.

وثالث الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد و«قص» المناظر، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، وهذه طريقة متّبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب.

والخصيصة الرابعة هي التصوير. إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي عرضها فتستحيل القصة حادثاً يقع، ومشهداً يجري لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى.

وهذا التصوير في مشاهد القصة ألوان: لون يبدو في قوّة العرض والإيحاء، ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات، ولون يبدو في رسم الشخصيات.

وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه. ولكن الواقع أن هذه اللمسات الفنية كلّها تبدو في مشاهد القصص جميعاً[1].

فالمؤلف في هذا التمهيد لم يخرج عن الإطار القرآني في بيان الخصائص الفنية للقصة القرآنية، وفي بيان ألوان تصويرها، ولم يذهب إلى تحكيم من لم يؤمن بقداسة القرآن وبأنه وحي من الله من علماء الفنّ القصصي من الشرق أو الغرب، في فنيات القصص القرآني، واخضاعها إلى موازينهم، كما يفعل المقلّدون من تلاميذ هؤلاء وهؤلاء، وذلك لأنه يؤمن بأن المنهج الحقّ، والميزان الصحيح في كل المجالات والميادين هو منهج القرآن، وميزان القرآن. وبعد تمهيده هذا قال:

---

(1) كتاب «منهج الفن الإسلامي» لمؤلفه محمد قطب الناشر دار القلم بدون تاريخ ص 236 - 237.

والآن نستعرض نموذجاً من نماذج القصة في القرآن، لنرى بعض هذه الخصائص والسمات.

قصّة آدم: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون* وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين* وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين* فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين* فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنه هو التّواب الرّحيم* قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون* والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون*﴾[1].

تلك قصّة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير... قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه.

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

فالإنسان ليس نباتاً شيطانياً، خرج إلى الوجود حيثما اتفق، بلا قصد، من خلقه ولا غاية... وليس هو كذلك «حلقة» من حلقات التطور، أوصلتها الحلقة

---

(1) سورة البقرة آيات 30 - 39.

السابقة إلى مكانها، ثم تركتها لحظّها في خطّ التطور العشوائي المتشعب الذي تلعب المصادفة فيه دورها على غير نظام معلوم؟.

وإنما هو من خلق الله، عن قصد منه سبحانه وتدبيره:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

فهي إرادته العليا التي «جعلت» الإنسان إنساناً، وهي إرادته العليا التي «جعلت لهذا الإنسان مهمة معيّنة... مهمة الخلافة عن الله في الأرض. مولد الإنسان تحتفل به السموات؟.

هذا هو الملأ الأعلىٰ من الملائكة يعلن بالنبأ العظيم، يعلنه الله سبحانه وتعالىٰ بذاته: **﴿وإذ قال ربّك للملائكة...﴾**.

ومنذ تلك اللحظة الأولىٰ تحدد له مهمته في إعلان ووضوح، فهو مخلوق مميّز الوضع منذ أول لحظة، منفرد في ظروف وجوده وخلقته، لا كغيره من المخلوقات؟ «خليفة» والملائكة يحارون في أمر هذا المخلوق، ويدهشون لقرار الله سبحانه في أمره ـ وهم الذي يقابلون أمر الله كله بالتسليم المطلق والترحيب ـ ولكن كأنما يحسون بعظم النبأ وخطورته، ويحسون بعظم النتائج التي ستنتج من وجود هذا الإنسان وخطورتها... ولعلهم قد رأوا «عيّنات» سابقة تنذر بما ذكروه من سفك الدماء والإفساد في الأرض، أو ربّما كشف لهم عن علم ذلك، فهم مشفقون من وجود هذا المخلوق الخطر الذي سيغيّر صورة الحياة على وجه الأرض؟.

ولكن الله العليم الحكيم يردّ عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون. فعلمه الشامل المحيط الذي يعلم بدء كل شيء ومنتهاه، لأنه هو خالق كل شيء من بدئه لمنتهاه... هذا العلم الشامل يعرف حقيقة الدور المعدّ لهذا الكائن الجديد، الذي يعلن الله سبحانه بذاته نبأ مولده في العالمين: **﴿قال: إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾**.

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾.

إنها المزية الموهوبة لهذا المخلوق، إنها الموهبة التي يزوّد بها منذ مولده ليستعين بها على أداء دوره في الأرض. إنها «المعرفة» زاد الإنسان الأكبر في هذه الحياة.

وحين يكشف الله لملائكته عن هذه الموهبة التي ميّز بها ذلك المخلوق لا يملكون أنفسهم أن يسبّحوا لله العليم القادر، الذي يخلق ما لا يعلمون. ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾.

سجدوا للقدرة المعجزة المتمثلة في خلق الإنسان، إنه بصورته التي خلق عليها بمواهبه التي أعطيت له، بدوره الذي يتهيّأ له.. معجزة تستحقّ السجود للخالق العظيم.

وكل خلق الله معجز، وكلّه عظيم، والحياة ذاتها من أكبر معجزات الخلق والملائكة يسبحون لله ليلهم ونهارهم ولا يفترون. ويسجدون لله في كل حين. ولكن النبأ العظيم هنا يبرز إبرازاً، وتعطى له أهمية واضحة و«تحشد» له وسائل الاحتفال حشداً لتبرز قيمه كلها منذ البدء. وذلك «فنّ» يجيء لخدمة الغرض الديني هنا، ولكنه في ذاته يحمل كل خصائص الفن الخالص، لأن الدين والفن في الإسلام كلاهما يعبر عن الحقيقة الكبرى.

«إلا إبليس»؟.

إنه وحده قد أكلت الغيرة قلبه من هذا الوافد الجديد، الذي تدل النذر كلها على عظمة دوره المقسوم له في هذا الكون؟ فلولا عظمة هذا الدور ما كان هذا الاحتفال الذي يجمع الملأ الأعلىٰ لتلقي أنبائه مباشرة من الله العلي العظيم؟.

﴿**أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾.

﴿وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة﴾.

لقد خلق الله لآدم من جنسه زوجاً، لم يجيء ذكرها بالتفصيل هنا ـ وفصل في أماكن أخرى ـ ولكن الإشارة واضحة.

(وقيل لآدم وزوجه اسكنا الجنّة).

والإنسان منذ مولده مخلوق للأرض؟ ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

فهو لم يخلق ليبقى في الجنة، التي شهدت مولده. ولم تكن إرادة الله له أن يبقى في الجنة، ولا أن يكون دوره النشيط فيها. ومع ذلك تتاح له هذه الفرصة القصيرة ليتذوق طعم الجنة ويعلم كم فيها من نعيم. ويعلم كم يستحق هذا النعيم؟.

إن الجنة بالنسبة له ليست خيالاً طائراً، ولا شوقاً مبهماً، ولا أمنية حائرة وإنما هي حقيقة يشهدها بنفسه قبل أن يهبط إلى الأرض لدوره المقسوم.. لتظل ذكراها في نفسه حيّة نابضة، وحنينه إليها مشاعر واضحة، وسعيه للعودة إليها حقيقة واقعة.

﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾.

النعيم كله مباح... رغداً فهو ميسر وقريب المنال.

ولكن الدور الذي يتهيأ له هذا المخلوق العظيم الوزن في السموات، يحتاج أن تكون له قوّة ضابطة، يستطيع ان يمتنع بها عن بعض ألوان النعيم، حين تقتضي ظروف الأرض ذلك الامتناع، ولابد من تربية هذه القدرة بالتجربة العملية. فالتربية النظرية لا غناء فيها حتى توضع على محك التجربة، والتدريب لا يكون إلاّ بالممارسة الفعلية.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

أي شجرة هي؟ ولماذا «هذه» الشجرة؟ ذلك علمه عند الله. ولكن يستوي أن تكون أية شجرة. فالقصد هو التدريب على الامتناع، وهو تربية القوّة الضابطة. فإن أكلا من هذه الشجرة فقد أخفقا في التجربة وسقطا في الامتحان، وكانا عندئذٍ «من الظالمين» ظالمين لنفسيهما، إذ يعزفان عن تزويد نفسيهما بالقدرة اللازمة للدور العظيم، ويعرّضان نفسيهما لدخول المعركة من غير سلاح.

﴿فأزلّهما الشيطان عنها﴾.

وفي مواضع أخرى ترد صيغة الاغراء التي فتن بها الشيطان آدم وزوجه فمرّة ترد هذه الصيغة: **﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟﴾**[1] ومرة ترد في هذه الصورة: **﴿وقال: ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾**[2].

إنها إذن... «شهوة» الخلود هي التي استزل بها الشيطان آدم وزوجه فأكلا من الشجرة.. أو شهوة «الملك».. القوة والسيطرة والسلطان إذن لقد صارت هذه الشجرة «شهوة».

وهذا المخلوق العظيم الذي يتلقى الملأ الأعلىٰ نبأ مولده من الله سبحانه مباشرة وتحتفل به السموات كل هذا الاحتفال، والذي يعدّ لدوره الضخم ويزوّد بامكانيات ذلك الدور.. إنه على هذا كله ـ يحمل نقطة ضعف التي يستزله منها الشيطان عدوه اللئيم الذي أكلت قلبه الغيرة منه. يضعف إزاء الشهوات.

يستوي أن تكون شهوة علم، أو شهوة قوة، أو شهوة سلطان، أو شهوة ملك، أو شهوة جنس، أو شهوة خلود.

---

(1) سورة طه آية 120.

(2) سورة الأعراف آية 20.

انها «شهوة» حين تركبه فلا يملك نفسه منها.. لا يملك الامتناع عنها. عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى... إلى الله.

﴿فأزلّهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه﴾.

أخرجهما من نعيم الجنة حسّية ومعنويّة سواء. أخرجهما من مستوى الرفعة الكريمة التي يمارسان فيها أجمل ما في كيانهما من الإشراق. ولكأنما كان ذلك هو الموعد المضروب لهما أن يهبطا إلى الأرض ليؤديا دورهما الأصيل.

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو. ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾. ولكن لم يكن بدّ من التجربة قبل الهبوط.. ليعرف الإنسان ـ من تجربته الذاتية ـ لماذا هبط من النعيم. ليعرف أن الذي يهبط به هو شهواته. نقطة الضعف المركبة فيه. وإنه يرتفع حين يضبط هذه الشهوات، حين يمتنع إذ يريد الامتناع أو يقتضي الأمر الامتناع. وأنه يهبط حين لا يضبط هذه الشهوة. حين لا يملك القدرة على الامتناع.

وإذ يعرف ذلك تدركه رحمة الله.

﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾.

إنه لا يهبط إلى الأرض منبوذاً محتقراً مطروداً من رحمة الله. كلا فالله قد خلقه ليؤدي دوره في الأرض، ومركز خلافته وميدانها هو الأرض. وهو قد جاءها ليؤدي المطلوب منه، المقسوم له منذ الأزل. وإنما كان الغضب عليه للحظة الضعف التي أصابته، فكان الرضا عنه حين عرف ميزان نفسه وأدرك متى يهبط، وكيف السبيل الى الارتفاع.

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾.

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً. فإمّا يأتينّكم منّي هدى، فمن تبع هداي فلا

خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

لقد اكتسب الإنسان التجربة المناسبة لدوره الخطير، إنه خليفة الله في الأرض، المزوّد لوسائل الخلافة ومواهبها، والمشتمل كذلك على نقطة ضعف ينفذ منها الشيطان عدوه الحاقد اللئيم، ومن ثم كانت تلك التجربة التي تكشف له نفسه على حقيقتها ليحترس، ليغطي نقطة الضعف ويقويها بعد أن لمسها بنفسه حقيقة واقعة، وليحترس من العدو الواقف بالمرصاد. بعد أن لمس بنفسه قدرته على الخديعة، والمنفذ الذي يتاح له الولوج منه إلى نفس الإنسان.

ومن ثم تصبح هذه التجربة ذاتها ـ على مرارتها ـ جزءاً من مقومات الخلافة في الأرض، جزءاً من «القوة النفسية» الممنوحة للإنسان، جزءاً من الزاد الذي يزوّد به لأداء الدور. وهي فوق ذلك عبرة لكل بني آدم. الذين يشهدون في أنفسهم ذات التجربة، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم فيتوقون للعودة إلى الجنة التي أخرج منها أبوهم القديم.

وهم عائدون. . . .

عائدون بعد أن يؤدوا الدور الذي خلقوا لأجله من الأصل، دور الخلافة عن الله في الأرض.

عائدون بشرط:

﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

إن الله بعد أن زوّد الإنسان بالتجربة الكاشفة، والقوة النفسية المستمدة من التجربة لم يتركه وحده وهو يقوم بدوره على الأرض، لم يتركه لنفسه وفيها ما فيها من ضعف ولم يتركه لعدوه الواقف له بالمرصاد، دون أن يهديه السبيل الى مناجزة ذلك العدوّ والسبيل لتقوية ما في النفس من ضعف، والسبيل إلى القيام بالخلافة كما ينبغي لخليفة الله.

إنه يمدّه بالهدى. . .

يمدّه بالدستور الذي ينظم حياته على الأرض، ويرفع من شأنها ويوجهها وجهة الخير.

يمدّه بالنصائح والتوجيهات والتحذيرات في كل خطوة من خطواته. ويزوده بالمعرفة النافعة التي تعينه على تخطي العقبات، والتي تيسر له المهمة الشاقة، وتكشف له عن طاقات نفسه الحقيقية، وما تستطيع أن تكون عليه من رفعة وعظمة واقتدار، لو سار بها على النهج القويم. . . في طريق الله.

فمن تبع هذا الهدى. . من سار على هذا المنهج. . من عمل بهذا الدستور. . فهو ناج من المهالك. ناج من العدو. ناج من عثرات الطريق. . **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** وموعدهم الجنة في آخر المطاف يعودون إليها بموجب وعد الله الثابت أن يعيد إلى النعيم المفقود من تبع هداه.

أما المكذبون الكافرون. . أما الذين يصرون على المخالفة، ولا يتوبون لله التواب الرحيم. . أما الذين يفتحون للشيطان منافذ في نفوسهم، ويسيرون في طريق الشهوات. . أما هؤلاء فقد حقّت عليهم عقوبة الطرد الأبدي من النعيم الموعود و**﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1].

فالتأويل الذي ذهب إليه محمد قطب وهو يعرض مراحل قصة آدم حسبما جاءت في القرآن الكريم أبرز فيه عدّة نواح:

الناحية الأولى: هي أن القصة ليس المراد منها قصة فرد. قصة آدم فحسب بل هي قصة البشرية جمعاء من بداية النشأة إلى نهاية المصير. وذلك لأن هدى القرآن ليس المراد منه هداية فرد أو بعض أفراد، بل هداية الكل، وتربية الجميع وتحذير الكافة من سوء المصير **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر**

---

(1) كتاب «منهج الفن الإسلامي» ص 238 - 246.

المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً* وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً*﴾[1] وتلك غاية القرآن في عقيدته وهدايته وتشريعه في قصصه وأمثاله وعبره.

الناحية الثانية: أن آدم هو بداية الحياة البشرية على سطح الأرض، هو بداية حلقة الإنسان، تلك المميزة عن بقية الحلقات فهي ليست امتداد لهذه أو لتلك وليست حلقة من حلقات التطور الذي تقول به نظرية النشوء والارتقاء التي تريد الرجوع بالإنسان إلى خسّة المنشأ إلى سلالة القرود افتراضاً وسخاً وتخيلاً هابطاً من ناحية، محاربة للدين واستخفافاً بالعقل وطمساً لمعالم اليقين من ناحية أخرى **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾**[2].

فجاءت قصة آدم تكذبهم من قبل ومن بعد وستبقى تكذبهم وتقول لهم إن آدم لم ينبت نباتاً شيطانياً، ولم يتطور في وجوده عشوائياً ومن باب الصدفة بل خلقه الله بإرادته وقدرته عن قصد وعلم. وميّزه عن بقيّة خلقه ليكون خليفته في أرضه **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** وللتنويه بهذه الخلافة، ولما سيكون لها من أبعاد في الكون، ومن صراع به يقع الفصل بين الخير والشرّ، وبين الحق والباطل، وبين ما يصعد إلى العلا وبين ما ينزل إلى الأسفل، وللاحتفال بصاحب هذه الخلافة الذي سيكون مسؤولاً عن خلافته، ومن أجلها سلح بالعلم والمعرفة، والطاقات التي تمكنه من خوض المعركة، أمر الله ملائكته أن تسجد شكراً لله على ما أنعم وأبدع وعلى ما قدّر وأراد. وأن تتخذ آدم قبلة لسجودها، احتفالاً به، وتنويهاً بشأن الخلافة التي تحمّل مسؤوليتها هو وذريته.

الناحية الثالثة: هي أن ما ذهب إليه بعض المتأولين ـ تصيداً من قوله

---

(1) سورة الإسراء آيتا 9 و10.
(2) سورة التوبة آية 32.

تعالىٰ: ﴿قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ إلى أن هناك أوادم سابقة لآدمنا وأجيالاً من الناس منحدرة منهم قبل أجيالنا عاشت على سطح الأرض من قبل إنما هو من قبيل التأويل الفاقد للدليل والسند، ومن قبيل الافتراض الذي لم يصل إلى جزم العلم ويقين المعرفة، لأن البداية والنهاية كلاهما من الغيب المجهول الذي ليس في مستطاع الإنسان إدراكه مهما بذل من التشوّف ومن حبّ الاطلاع، ومهما تطاول في الادعاء، وتناهى في الغرور لأن الغيب محجوب عنه.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضداً﴾[1].

وقوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾[2].

الناحية الرابعة: هي أن العلم الهادف، والمعرفة الحقّ، يهون في سبيلهما ما يعترض طريقهما، ويتخلل مسيرتهما من تصادم دموي ومن معارك مدمرة لأن فتوحات العلم الهادف، وثمار المعرفة الحق، هما الباقيان في آخر المطاف، وهما المنتصران في نهاية المعركة ﴿فأما الزّبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[3] ويؤخذ هذا من ردّ الله تعالى على ملائكته مجيباً عن سؤالهم، ومزيلاً لحيرتهم قال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون، وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾.

الناحية الخامسة: هي أن آدم خلقه الله من الأرض وإلى الأرض، وإنما أسكنه الجنة قبل أن يباشر أداء رسالته فوق سطح الأرض، لإعداده إلى الخلافة

---

(1) سورة الكهف آية 51.

(2) سورة الأعراف آية 187.

(3) سورة الرعد آية 17.

وإلى ما سيواجهه فيها من صراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين معالم الهدى والنور، ومغاور الضلال والظلام، سواء هذا الصراع يكون نابعاً من داخله من نفسه الأمّارة بالسوء أو خارجه من إبليس عدوّه وعدو ذريته، ويستنتج لون الصراع الداخلي من قوله تعالىٰ: ﴿**ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها**﴾[1] ولون الصراع الخارجي من قوله تعالىٰ: ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين**﴾.

ومن أبرز عناصر هذا الصراع الأنانية الطاغية التي تنتج الحسد الذي يحيل حياة النعيم والسعادة إلى جحيم وشقاء وتناحر وصراع إلا من حفظه الله وصانه فتاب وآمن وعمل صالحاً، وجاهد الهوى والشهوات وتغلب على الشرّ وعلى الدّافع إليه والمزّين له ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس**﴾[2].

الناحية السادسة: هي أن تحمل المسؤولية يتطلب مقداراً من الحرية، وهي الحرية المقيدة. وتلك ميزة الحياة وما فيها ومن فيها، حرية بها وبجميع الطاقات المساعدة يقع التحرك والسير، والسعي والطلب، ويتم الميز والاختيار، والتصميم والفعل وقيد به تتضح المعالم والحدود، ويحسن الانضباط ويقبح التجاوز، أخـذاً من قوله تعالىٰ: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾.

الناحية السابعة: هي أن الحياة الدنيا التي نزل آدم من جنته، من علیائه إلى الأرض ليتم مشاهد الاحياء بها، وليقوم فيها بأعباء الخلافة وإبليس ليقوم بصدّ آدم وذريته عن الاستقامة في أداء الخلافة، وعن الاحسان في القيام بالمسؤولية، ميدان واسع لا تعرف حدود مكانه، ولا تعلم أطراف زمانه، من

---

(1) سورة الشمس آيات 7 -8 -9 -10.

(2) سورة الناس آيتا 6 - 5.

جاهد فيه فحقق أهداف الخلافة نجا وفاز، ومن قعد فيه عن الجهـاد فاستجاب للهـوى واتبع الشيـطان خسر وكان من الهالكين وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون* والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

وبعد عرضه لمراحل قصة آدم في القرآن لفت النظر إلى أبعادها وإلى الهدف الديني من عرضها، ثم إلى الذخيرة الفنية التي صيغت فيها، وهي ذخيرة غنيّة في منهجها، غنيّة في ملامحها، غنيّة في أبعادها، غنيّة في فنياتها غنيّة في كيفية تناولها للموعظة، وفي توجيه الناس بها.

وبذلك فهي ذخيرة معطاء رائدة، على الإنسان أن يقتدي بها ويسلك منهجها في نظرته إلى نفسه، وفي فنية التعبير عن نظرته، وفي أسلوب إلقاء الموعظة، وطريقة النفع بها. فقال: تلك قصة البشرية... بدأها آدم، وما تزال تتكرر في حياة البشر على صورة من الصور على ممر الأجيال.

والقرآن يعرضها بطبيعة الحال لهدف ديني بحت هو التحذير من نزعات الشيطان، والحض على اتباع هدى الله، والترغيب في الطاعة والترهيب من العصيان... وذلك إلى جانب بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان وإشعار هذا الإنسان بقيمته في نظام هذا الوجود، وبكرامته على الله سبحانه وبتكاليف هذه النظرة وهذا التكريم.

ولكن هذا الهدف الديني البحت تستخدم له هنا الوسائل الفنية بدلاً من إلقائه موعظة مباشرة، فتستخدم له القصة، وتستخدم في القصة كل وسائل التشويق والعرض التي تستخدم في الفن الخالص، وتلك ذخيرة فنية صالحة للاقتداء بها من ناحيتين: ناحية استمداد النظرة إلى الإنسان من خلال هذه النظرة الإلٰهية إليـه وهي تمثل حقيقته كما خلقها الله. وناحية التناول الفني

للموعظة التي توجه الناس إلى الخير والكرامة والنظافة. . .

«فالموعظة» المطلوبة، أو «التوجيه» الخلقي المطلوب، يمكن أن يصاغ في قصة فنية، فيؤدي هدفه أبلغ أداء، دون أن تظهر فيه الموعظة بصورة مباشرة ودون أن يكون التوجيه أوامر ونواهي مجردة خالية من «الكساء» الحي الذي يوسع مساحتها في الحسّ، ويجعلها أبلغ وصولاً إلى أعماق النفس[1].

ثم لفت النظر ثانياً إلى ما في القصة من إيحاء. وقد أبرز منه إيحاءين:

الأول: جدّية الموضوع، وجدية عرضه وتناوله، وفي القرآن لا نجد إلا هذا اللون، وبما أنه كتاب هداية وتوجيه، فهو يعلم الإنسان بهذا الإيحاء، أن يكون جاداً في تناوله الأمور، وفي عرضه لأعماله ولإبداعاته وفنياته، وفي عرضه للحياة البشرية، أن يكون جاداً في جميع ذلك، سواء في حالة جدّه، أو في حالة هزله وذلك لأن الإنسان مطلوب منه أن يؤمن بجدية الحياة وأهميتها، وبجدية دوره فيها، فقال: فالإيحاء الأول أن الإنسان كائن فذّ، متفرد في خلقته ومواهبه، وأنه مخلوق لهدف جادّ، هو الخلافة عن الله في الأرض. من ثمّ ينبغي أن يكون القصص ـ والفن كله ـ جاداً في عرضه للحياة البشرية.

ولا نقصد «بالجدّ» أن تلغى الفنون «الهزلية» (الكوميدية) من الحساب! كلا فالملهاة يمكن أن تكون جادة جدّاً في الموضوع الذي تتناوله بالسخرية والإضحاك. ولا نقصد أن يفقد الفن نداوته وطلاوته وعذوبته، ليصبح نصائح وقواعد خلقية وإرشادات؟.

إنما نقصد بالجدّ هنا أن نؤمن بجدية الحياة وأهميتها، وعظم الدور الذي يقوم به الكائن الإنساني في هذا الوجود، وارتباطه بإرادة الله العليا، وسريان قدر الله في الأرض عن طريق أعماله ومشاعره وأفكاره: ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[2].

---

(1) منهج الفن الإسلامي ص 246 - 247.

(2) سورة الرعد آية 11.

فلا نرسم الحياة تفاهة وانحلالاً وفراغاً من القيم والأهداف (إلا أن نريد هذا العرض عن قصد لننتقده وننفّر منه) ولا نرسمها ذات أهداف واطية قريبة كأهداف الحيوان. . . فذلك يخالف «القصد» العلوي من خلق هذا الكائن البشري. والاحتفال به يوم مولده في الملأ الأعلى بكل هذه التكريم والتفخيم والاعلان.

ولا علينا بعد ذلك أن تكون الصورة التي تعالج بها القصة مأساة أو ملهاة. . . فالملهاة يمكن أن تكون جادة ـ كما قلنا ـ وهي تعرض اختلالات البشرية وتسخر بها لأنها تتخذ السخرية والهزل وسيلة فنية لتضخيم الاختلال وإبرازه. ليتبدى من وراء ذلك ما ينبغي أن تكون عليه البشرية من رفعة واستقامة. وتوازن واتساق. ولا علينا كذلك من اعطاء الفنّ كل ما نملك من نداوة وعذوبة وطلاوة، فهذه كلها عنصر أصيل في الفن لا نستطيع الاستغناء عنه.

إنما المهم أن نحسّ من خلال هذا الفن أن الحياة شيء لـه قيمته الحقيقية. والإنسان كائن ذو مكانة ورفعة. وقصد وأهداف[1].

الثاني: إبراز ما في الإنسان من ضعف، ونقطة الضعف هذه أساسية في كيان الإنسان عليه أن يعترف بها من غير مواربة ولا تزوير، وأن يعمل على معالجتها في أعماله، وفي أهدافه الإبداعية ومراميه الفنية وأن لا يزيف الحقائق فيجعل الضعف قوة والجبن بطولة.

فقال:

والإيحاء الثاني هو «نقطة الضعف» في الكائن البشري، وطريقة عرضها وإبرازها. ان القرآن ـ وكذلك ينبغي أن تفعل الفنون الإسلامية ـ يعرضها على

(1) منهج الفن الإسلامي ص 247 - 248.

أنها نقطة ضعف ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾[1] ﴿فأزلّهما الشيطان عنها﴾[2] ﴿وعصى آدم ربّه فغوى﴾[3] وهذه في ذاتها حقيقة فهذا المخلوق الفذّ الفريد الذي تسجد له الملائكة يضعف إزاء شهواته فيهبط إلى الحضيض. . . ولا يرتفع إلا حين يقدر على ضبط ما ركب في طبيعته من شهوات[4] ثم ختم ما قام به من لفت النظر إلى ما في القصة من إيحاء ببيان الفرق الشاسع بين ما في عرض القرآن لقصة آدم من صدق وواقعية ومن سموّ ورفعة، ومن جدّ وجدوى. ومن إبداع وفنّ، ومن عمق إيحاء وروعة تصوير. ومن سموّ معنى واحكام مبنى، ومن علم يقيني ويقين معرفة، وما في عرض الآداب الغربية لها من هبوط وإسفاف ومن انحراف وضلال، ومن زيف وباطل، ومن خبث ومكر، ومن تمرد وعصيان، ومن سخافة وهزل، ومن تصوير وثني يزري بعقل الإنسان ومواهبه، ومن تنكب عن مسار الحق، ومن انحدار مهين، اتباعاً للهوى، واستجابة للشهوات. فقال:

والفن الصادق في التعبير عن الحياة وعن «الواقع» وعن نواميس الكون الكبرى، ينبغي أن يعرض هذه الحقيقة كما هي بلا تزوير. ينبغي أن يعرضها على أنها نقطة ضعف ألمّت بآدم ـ وتلمّ من بعده بكل أبناء آدم ـ ثم استطاع أن يستعلي عليها، وكذلك يستطيع بنوه.

أما الآداب الأوروبية المنحرفة الضالة فإنها تعرضها على أنها مفخرة لآدم وبطولة أن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيّد نفسه وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعالة. ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم فإنها لا تساوي شيئاً إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته، واختياره مصيره بنفسه، بحرية بعيداً عن وصاية الله.

---

(1) سورة طه آية 115.
(2) سورة البقرة آية 36.
(3) سورة طه آية 121.
(4) منهج الفن الإسلامي ص 248.

كذلك تعرضها الآداب الأوروبية المنقطعة عن هدى الله المتأثرة في صميمها بما رسب في كيانها من أساطير اليونان القديمة التي تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة. وتتمنى انتصار البشر على الآلهـة الظالمين الطغاة!.

وهي آداب ذات إيحاء خبيث لا يخفى، فهي توحي للناس بعصيان ربهم والإغراق في الشهوات لكي يحققوا ذواتهم! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان! وكأنما الطاعة لله هي انعدام الشخصية وزوال الكيان!.

إنها نظرة ـ فوق ما فيها من مرض وانحراف ـ فجّة تعيش في مستوى الأطفال.

فالطفل وحده هو الذي يظنّ أنه يثبت وجوده، حين يعصي، ويلغي كيانه إذا أطاع، ولكنه حين يكبر وينضج، حين يفهم الحياة في عمقها وحقيقتها، يعرف أن هناك طريقين لا طريقاً واحداً لإثبات الذات، طريق الطاعة، وطريق العصيان، طريق الهدى، وطريق الضلال، وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعنـاد مع الحق. إلا في حـالة الضعف والمـرض والهبوط، أما في حالته السويّة، حالة الصحة والارتفاع فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصمود. ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيّرة المهتدية إلى الله... أي بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته ليقدر على الصمود.

هذه حقيقة البشرية على الأرض، وهي الحقيقة التي ترمز لها قصة آدم في القرآن.

وهكذا ينبغي أن تعالجها الفنون كلها، لكي تكون واقعيّة صادقة التعبير عن ناموس الحياة.

لحظة العصيان هي لحظة الضعف والهبوط لا لحظة القوة والارتفاع... لحظة تقع لبني آدم في أي لحظة وفي كل لحظة. ولكنها تظلّ كما هي في

حقيقتها، لحظة هبوط، ويظلّ التوجيه الواجب هو الإفاقة منها، والتحول إلى طريق الارتفاع.

والضعف البشري ليس هو البطولة التي تستحق التشجيع والتسجيل وإنما البطولة الحقة هي محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطة الضعف، والانطلاق من ضغط الضرورات[1].

هذا النموذج الأول الذي أردت منه بيان أسلوب ومنهج التأويل الذي يمثل الاعتدال في مجال القصة القرآنية.

وأما النموذج الثاني الذي أريد به بيان التأويل الذي يمثل الغلو في هذا المجال فقد اخترته من كتاب «الفن القصصي في القرآن الكريم».

فقد قدّم صاحب الكتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله. للقصة القرآنية بقوله:

كنت قد أحسست بحاجتي الملحة إلى الاطلاع على ما فعله علماء الغرب حين يدرسون الأدب وتاريخه. فاستجبت لهذا الإحساس وقرأت بعض الكتب التي تعالج هذه المسائل، وكان مما قرأت تلك المجموعة من الأبحاث التي قام بها علماء الأدب من الانجليز وأخرجتها جامعة اكسفورد على أساس من الدراسة فريد فلقد قامت دراسة هؤلاء على أن الأدب تجربة وتقليد. وأن الدراسة التاريخية له على هذا الأساس يجب أن تبدأ معه وهو وليد.

وقامت هذه الدراسة أيضاً على أساس أن كل لون من ألوان الأدب يكتب في تاريخه اثنان: مؤرخ للأدب وأديب، فيكتب في الشعر مؤرخ للشعر وشاعر، ويكتب في القصة مؤرخ للقصة وقصاص، وفي النثر الفني مؤرخ للنثر وكاتب.

---

(1) المرجع السابق ص 248 - 250.

وهكذا[1] وبالإشارات الواردة في هذه الفقرة أراد المؤلف أن يشعرنا بنوع الدراسة وبمنهج البحث الذي سيسلط أضواءه على القصة القرآنية باعتبار أنها لون من ألوان الأدب البشري الذي هو ـ حسب نظر المدرسة الغربية ـ تجربة وتقليد وأن الدراسة التاريخية لهذا اللون يجب أن تبدأ معه وهو وليد. لنعرف تطوره في مجال التجربة والتقليد من حيث طفولته ومراهقته وشبابه واستوائه، وقوّته ونضجه. وهذا ما أراد أن يضع فيه القصص القرآني.

ثم تمادى في بيان ما يفعله علماء الغرب حين يدرسون الأدب وتاريخه، بإعجاب وهيام مبالغ فيهما فقال:

ثم كان مما قرأت أيضاً ذلك البحث القيم الذي كتبه عن المنهج الأدبي (لانسون) وعربه (مندور).

قرأت هذه الكتب فانتهت بي القراءة إلى الإحساس بالمفارقة العجيبة التي توجد بين ما تصورته الدراسة الأدبية من منهج، وما عليه نسير.

تصورت أن القوم يفرّقون بين دراستهم للنصوص دراسة أدبية وبين قراءة هذه النصوص للاستمتاع واللذّة وترضية العواطف والشعور.

وتصورت أنهم حين يدرسونها دراسة أدبية يعنون العناية التامة بالتفرقة بين ما فيها من قيم عقلية، وما فيها من قيم عاطفية وأخرى فنية أو بلاغية. وتصورت أنهم لا يصدرون حكماً من الأحكام الأدبية على شاعر، أو مدرسة أدبية، أو مذهب فني، أو حتى على عصر من العصور، وبيئة من البيئات إلا بعد استكمال الوسائل التي تمكنهم من الحكم عليه.

وتصورت أن أولى هذه الوسائل هي الوقوف على المواد التي يجب درسها

---

(1) كتاب: الفن القصصي في القرآن الكريم للدكتور محمد احمد خلف الله ص 8 - 9 ط 4 سنة 1972 الناشر مكتبة الانجلو المصرية.

قبل إصدار الحكم، ومن هنا رأيتهم حينما يحاولون إصدار حكم أدبي يتطلبون استكمال هذه المواد:

أولاً ـ النصوص الأدبية يجمعونـها ويحققونها ويدرسونها دراسة أدبية عميقة، وتوضح الظواهر العقلية والعاطفيّة والفنيّة وتفسرهـا تفسيراً واضحـاً مقبولاً.

ثانياً ـ وهم ثانياً لا يفسرون خصائص الأديب أو الشاعر أو الناثر كما لا يفسرون خصائص المدرسة أو المذهب والعصر أو البيئة إلّا على أسس ثابتة. فالخصائص التي لا يشرك الأديب فيها غيره هي خصائصه المميزة. والخصائص التي يشركه فيها غيره خصائص المدرسة أو المذهب. فإن كانت من الخصائص العامة التي تعمّ البيئة أو تجاوزها فهي خصائص العصر أو البيئة وهكذا.

ثالثاً ـ وهم لا يستطيعون الحكم الأدبي على عصر من العصور أو مدرسة من المدارس، ويتبنون خصيصته المميزة إلا بعد الوقوف على الخصائص المميزة لكل عصر من العصور السابقة. إنهم يتطلبون في الدراسة القيمة للتاريخ الأدبي أن تسير سيراً منطقياً مسلسلاً وأن تبدأ مع الأدب فتخطو معه خطواته الأولى وتشركه في الحياة منذ أن تدبّ فيه.

إنهم يسلسلون التيارات الأدبية ويحللون ما فيها من قيم، ويصورون لنا الحياة العقلية بما فيها من فلسفة وعلم، والحياة الفنية بما فيها من مذاهب للتعبير. وفرق كبير بين ما عليه هؤلاء وما عليه نسير. وإنه لفرق يشعرنا بالنقص الذي يجب علينا أن نتداركه وإلّا ضاعت قيمة العلم والتعلم والتعليم[1].

فـي هذا القول والذي سبقه إعجاب بعلماء الغرب. وتنويه يدلّ على ما يؤمن به من تبعيّة لهم، ومن تقبّل لما يقولونه بدون احتراز ولا استثناء.

---

(1) نفس المرجع ص 8 - 10.

وما ذكره لهم من منهج محكم لدراسة الأدب وفنونه، ومن تصور رفيع لموضوعه وأهدافه، ومن طريقة علمية فنية لاستكمال المواد التي تمكنهم من إصدار أحكامهم عن بيّنة، وعن علم ومعرفة، وما ذكره لهم من جميع ذلك، هو أمر يثير الإعجاب ويبعث على الاقتداء ما دام في النصوص الأدبية، والأعمال الفنية التي يؤلفها وينتجها البشر من الشرق والغرب.

أما مع النص المقدس النص القرآني الذي هو من الله لا من البشر، فلا ينبغي أن يوزن بما عند علماء الغرب. ولا أن يعتبر لوناً من ألوان القصة العربية التي هي ـ حسب ما عند علماء الغرب ـ جدّ متواضعة، إن لم تكن بدائية في موضوعها ومنهجها، وفي تصورها وفنياتها، ولكن محمد أحمد خلف الله، لمدى إعجابه بما عند الغربيين، سوى في نظرته وفي تأويله، بين صنع الله وصنع الناس.

بهذه النظرة التي تنبع بالإعجاب بما عند علماء الغرب لم ير صاحبنا بأساً من أن يعتبر القصص القرآني في مستوى العمل البشري المتواضع في موضوعه وأسلوبه، وفي تصوراته وفنياته، أي في مستوى القصة العربية في بداية مراحلها وهذا ما نستنتجه من صريح مقاله الذي يقول فيه:

«هذا هو الجديد الذي قوى في نفسي اختيار الفن القصصي في القرآن الكريم فقد رأيت هذا الموضوع يحقق هذه المنهج من حيث إن القصص القرآني نقطة البدء في بداية القصة العربية عامة والدينية خاصة، ولا أخالك في حاجة إلى أن أدلك على أن ما سبق القصص القرآني من قصص عربي لا يصلح أن يكون مادة للدراسة الأدبية للقصة بحال من الأحوال ليس ذلك إلا لأنه لم يصلنا سليماً، وكل ما حوفظ عليه فيه هو قيمته الفكرية، وأنه من هنا يصلح لدراسة التيارات العقلية، ولا يصلح لدراسة التيارات الفنية.

إن القصص القرآني هو القصص الذي وصلنا سليماً، وهو الذي نثق به

ونطمئن إليه: ومن هنا نستطيع أن نعتبره الصورة الأولى للقصة العربية[1].

ومع اعترافه أن خطواته التي سار عليها أثناء درسه لهذا الموضوع أي القصة القرآنية، هي خطوات مقلّدة ومتبعة لآثار خطوات رجال الأدب الغربيين، فقد أشفع اعترافه هذا بتواضعه أمامهم حتى لا يسيئوا به الظنّ ويفهموا من اعترافه تطاولاً عليهم. فأبان لهم أن خطواته وإن كانت مقتفية لآثار خطواتهم فإنها قديمة بالنسبة لجديدهم الذي لا يجارى فقال:

«وهذه الخطوات ذاتها ـ أي الخطوات التي قام بها أثناء دراسته لموضوع القصة القرآنية ـ قديمة إذا نظرنا إليها على أنها مستقاة من كتب المناهج أو من الواقع العملي لما يفعله النقاد وكبار رجال الأدب حين يدرسون الآثار الأدبية والفنية. لقد مكّنتني متابعتي لما يفعله هؤلاء من الوقوف على أساليب مختلفة في تسجيل الظواهر بعد الوقوع عليها، وفي تفسيرها تفسيراً أدبياً معقولاً[2].

وأول الظواهر التي طغت فوق سطح تفكيره وشربها من النبع الغربي الذي يغرف منه مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار إلى مستوى يخيّل لنا فيه أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ومن جهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار فيقول:

والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة، جعلها مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى لا يخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار[3].

---

(1) نفس المرجع ص 12.
(2) نفس المرجع ص 13.
(3) نفس المرجع ص 22.

هذه المقولة مليئة بالمكر والخداع وعدم الصدق في التحليل وفي التأويل وبناء أحكام، ماذا يريد بالكتب السابقة، وبما يعرفه أهل الكتاب؟.

هل الكتب المنزلة بحق على الرسل...؟ هي لم تصل إلينا. أم الكتب المحرفة المزيفة التي يدّعي اليهود أنها التوراة. وكذلك ما يدّعيه النصارى أنه الأنجيل؟.

فالتوراة التي عند اليهود اليوم، والتي يدعي صاحبنا أن القرآن بنى أخباره عليها، ويثبت التاريخ غير المكذوب والمزيف، ويثبت البحث العلمي المركّز والمدعّم بالادلّة الثابتة وبالبراهين اليقينيّة أنها ليست التوراة المنزّلة على موسى ـ عليه السلام ـ بل هي من صنع أحبار اليهود، ومن املاءاتهم وافتراءاتهم التي يرفضها العقل ويسمجها الذوق.

جاء في كتاب: «الإسلام ضرورة عالمية» ـ تحت عنوان: أسباب تحريف التّوراة ـ ما يلي:

«وقد تحقّق ظنّ موسى بهؤلاء الكهنة... فإنه بدون أن يمنحهم تفويضاً من نوع مّا بأن يتصرفوا في توراته بالحذف أو الاضافة فإنهم قد منحوا أنفسهم حق الاستمرار في كتابة القصة الإسرائيلية وإضافتها إلى التوراة كأجزاء أصيلة فيها. ومند أن استودع موسى كهنة الهيكل توراته لم يتوقف هؤلاء عن تحرير الاسفار والأمثال والأناشيد والمزامير وإضافتها إلى هذه التوراة... بل خصصوا وظائف رسمية في الهيكل لجماعة الكتبة مهمتهم تدوين ما يمليه الكهنة، ويلقنونه للناس ضمن ما يذيعون عليهم من نصوص تعاليم الرب ووصاياه.

كانت هذه العملية يقوم بها تحت إشراف الكهنة وتحت سلطانهم وفي كنفهم موظفون يعرفون بالكتبة يتقاضون أجورهم من أموال الهيكل التي تجمع باسمه كضريبة من الشعب ـ وكان لا بدّ أن تتخذ هذه العملية طابعاً يحقق أطماع

الكهنة ومآربهم ويوثق ارتباط الشعب بالهيكل على نحو يكفل لسدنته الجاه والثروة. . .

ومن البدهي أن أسفاراً برمتها عددها أربعة وثلاثون ابتداء من سفر يوشع حتى نهاية التوراة من وضع وصنع الكهنة وحدهم لأنها تؤرخ لفترة ما بعد موسى. . . وهذا الجزء وحده يؤلف أكثر من تسعة أعشار التوراة. . .

ثم قال ـ تحت عنوان: قصة التصحيح الأول للتوراة ـ :

وإذا أضفنا إلى ذلك الحملات التي كان يشنّها على فساد الكهنوت الأنبياء (وكانوا يمثلون قوة الضمير ومثاليته في الشعب الإسرائيلي) من أمثال صموئيل، وأرميا بسبب التدهور الديني والاخلاقي الذي وصل إليه الشعب، وإلقاء اللوم في ذلك كلّه على الكهنة وحدهم، لأنهم باندفاعهم المتهور نحو السلطان والأبهة والرّفاهية، قد أضلّوا الشعب وأضاعوه.

وإذا نحن أخذنا في اعتبارنا هذه الحملات أيضاً تصورنا موقف الكهنة العصيب وأنهم قد وقعوا في أزمة حقيقية تجعلهم على شفا هاوية الضياع النهائي. . . وبذلك كان لا بدّ لهم أن يقفوا وقفة قويّة يمنعون بها تدهور العقيدة القومية وبالتالي يمنعون هبوب العاصفة التي توشك أن تثور لتدميرهم. . ورأوا أن أحسن وسيلة لإنقاذ الموقف هو إبلاغ الناس الرسالة من الله نفسه (ممثلة في وصاياه التي تتضمن سنته الآلهية) لتبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية. . وبهذا أيضاً يضمنون معونة الأنبياء بدلاً من موقف العداء الذي يقضّون به مضاجعهم. . . وقد كان ذلك إبان حكم الملك يوشيا الذي اعتلى عرش أورشليم طفلاً في الثامنة من عمره، فسرعان ما سيطروا عليه وضمنوه إلى جانبهم ولم يمض وقت طويل حتى كان هذا الملك قد صار حليفاً للكهنة وواحداً من رواد الهيكل الأتقياء. . . ولكن هذا الهيكل كان قد أصبح في عهدة مباءة للرجس، ومسرحاً للشرك بسبب ما صار إليه الإسرائيليون من فساد في العقيدة وانحلال في الخلق.

ويصف سفر الملوك الثاني (في إصحاحه الثاني والعشرين والثالث والعشرين) مدى ما وصلت إليه حالة الديانة اليهودية والمجتمع اليهودي من سوء وفساد وضلال وانحراف، فيبيّن أن هيكل الإله يهوه قد صار متحفاً تتنافس فيه أصنام الآلهة وتماثيلهم، وأن بني إسرائيل قد آل أمرهم إلى أن أصبحوا جماعة من المشركين الذين نسو إلههم يهوه، وصاروا يعبدون عدداً من الأوثان ويقدمون القربان لكثير من الآلهة بأسماء مختلفة.

ثم قال: وفي السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الملك أجرى عمارة في الهيكل وأرسل من قبله رسولاً إلى حلقيا الكاهن الأعظم يكلفه بأن ينفق على أعمال الترميم من حصيلة الفضة التي يدفعها الشعب ضريبة للهيكل... فلما وصل رسول الملك أخبره الكاهن أنه عثر بين الأنقاض على كنز خطير... ولم يكن هذا الكنز سوى «سفر الشريعة» حسبما أسمته نصوص التوراة.

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا يكون سفر الشريعة هذا؟ ولكن روي أنه عندما أحسّ يوشع بن نون ـ خليفة موسى ـ بدنوّ أجله جمع شيوخ شعب إسرائيل ورؤساءه وقضاته وعرفاءه وأوصاهم بقوله: «تشددوا جداً لتحفظوا وتعملوا كلّ المكتوب في سفر شريعة موسى حتى لا تحيدوا عنها يميناً أو شمالاً». (سفر يوشع 5/23) وهذه الإشارة العابرة إلى سفر الشريعة في خطية يشوع ـ ولم يكن قد مضى وقت طويل بعد وفاة موسى ـ تجعل الفرض الوحيد المعقول أنه هو نفس وصايا الله التي جمعها موسى ودونها في كتاب سماه: التوراة وسلمه إلى الكهنة بعد أن قرأه عليهم وأمرهم بأن يحفظوه ويعلموه للناس... ويؤكد هذا الافتراض أنه لم يودع بالهيكل سوى الوصايا العشر في تابوت العهد وتوراة موسى بجوار هذا التابوت...

والوصايا العشر لا تؤلف سفراً ولا تشمل كل الوصايا التي تؤلف الشريعة الموسية وبالتالي لا تشمل التعليمات الإلهية التي نفذها الملك يوشيا بعد أن قرأ

سفر الشريعة، وأمر الشعب بتنفيذها ومن بينها إقامة أعياد الفصح وغير ذلك من الأوامر والنواهي الإلهية...

ثم قال: وإذا كان من المسلم به أن كتبة التوراة قد ظلّوا يدونون ما يمليه عليهم الكهنة طوال الوقت منذ أن سلمهم موسى توراته وأمرهم بالمحافظة عليها ومداومة تعليمها للناس... فإنه لم يحن عهد الملك يوشيا في القرن السابع قبل الميلاد ـ أي بعد وفاة موسى بأقل من خمسة قرون ـ حتى كانت التعاليم والنصوص الدينية التي يتلقاها الشعب من الكهنة خالية تماماً من وصايا الله وشريعته التي أوحاها إلى نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بحيث كانت شيئاً جديداً ـ عندما عثر عليها ـ على الملك التقي يوشيا وعلى شعب إسرائيل الذين تأثروا بها أشدّ التأثر وبحيث كان الهيكل نفسه قد أصبح مستودعاً لأوثان الشرك، وساحته مباءة للرذيلة والفساد.

ومن البدهيّ أن الزعامة الدينية ممثلة في الكهانة (التي كانت وقفاً على أبناء هارون يتوارثونها أباً عن جد) قد لعبت في التوراة الموسية وحرّفتها بحيث شوّهت السمات الأصيلة للديانة اليهودية سواء في العقيدة عن الإله وصفاته أم في طقوس العبادة أم في الشريعة والقوانين.

ولقد أهمل كل العلماء والباحثين التعرض للصورة التي آلت إليها التوراة قبل أن يعثر حلقيا على سفر الشريعة، ولكنهم استشفوا من واقع الحادثة تلك الصورة المهينة التي آلت إليها الديانة والمجتمع اليهودي... ويعتبرون أن ظهور هذا السفر هو البداية الحقيقية لتدوين التوراة. وأن لحظة العثور عليه هي لحظة مولدها... ولكن أي توراة؟.. هي ليست إلا التوراة التي بأيدينا على كل حال...

وهم أيضاً على حقّ حين ينكرون أو يتشككون في نسبة هذا السفر إلى موسى كما ادعى حلقيا كبير الكهان... بل انه ـ في رأيهم ـ حيلة لجأ إليها هذا

الكاهن لكي يبعث الحياة في ديانة ماتت على يد كهنتها ودفنت منذ زمان طويل، وانصرف الناس عنها انصرافاً كلياً وكفروا بإلهها واستبدلوه بأصنام وأوثان اخترعوها. واضطر الهيكل لأن يستضيف هذه الأوثان حتى يضمن كهنته دخلاً من النذور والقربان، فلما تأصلت الوثنيّة في نفوس الناس، وتضاءل ما للهيكل وكهنته من جلال رمزي، وازدادت ضراوة وعنفاً حملات الأنبياء والمصلحين على انحراف الكهنة وفساد الشعب، كان ظهور هذا السفر المزعوم على يد حلقيا عظيم الكهان وشيخ الأحبار. . . . وإذا ضربنا صفحاً عن كل ما قيل بصدد الحقيقة لهذا السفر فإن العقل المنصف لا يمكن أن ينظر إليه إلا على أنه قد ظهر في نفس الوكر الذي منه تسلّل الانحراف والفساد إلى بني إسرائيل[1].

وتحت عنوان: قصة التصحيح الثاني للتوراة قال:

«ومنذ عودة اليهود إلى أورشليم[2] شرع الكهنة في وضع قواعد حكم ديني يقوم ـ كما كان الحال في عهد يوشيا ـ على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم، وعلى أوامر الله. . . وفي عام أربع وأربعين وأربعمائة ق. م. دعا عزرا ـ وهو كاهن ـ اليهود إلى اجتماع عام خطير، وشرع يقرأ عليهم «سفر شريعة موسى»، وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرؤون ما تحتويه ملفات هذا السفر. ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وقانوناً يتصرفون بمقتضاه ويسيرون على هداه».

ولا يمكن أن يكون سفر الشريعة هذا الذي قرأه عزرا هو نفس سفر

---

(1) كتاب الإسلام ضرورة عالمية تأليف زاهر عزب الزغبي نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة 1971. ص 66 -67 -68 -69 -70 -71 -72.

(2) أي بعد ان قدم نبوخذ نصر مرة ثانية الى اورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان. . واسر جميع السكان اليهود وساقهم أمامه إلى بابل أسرى حيث عاشوا في ظروف مماثلة تماماً لما كانوا عليه في مصر قبل ظهور موسى، وحيث ظلوا طوال ما يزيد على ثلاثة قرون بضاعة رائجة في أسواق النخاسة بالمدن البابلية.

الشريعة الذي عثر عليه الكاهن حلقيا في الهيكل في عهد الملك يوشيا. لأن الأول قد قرىء مرتين في يوم واحد بينما هذا الأخير ظل الكهنة يتناولون قراءته سبعة أيام كاملة حتى انتهوا منه... ولا يهمنا معرفة ماهية الكتابين ولا أن نحقق مضمونيهما ولكن الذي يعنينا أولاً وقبل كل شيء أن شريعة موسى كانت قد نسيت أو اندثرت تماماً مرتين في تاريخ اليهود.... وكانت في كل مرة ـ بعد ضياع كامل ـ تبعث على يد الكهنة، وهم نفس الطائفة التي تلاعبت فيها وأخلّت بأمانتها تجاه وديعة موسى بكل ما فيها من وصايا وتعاليم إلّهية...

ولا ريب في أن كل باحث محقق لا يمكن أن ينصف عقله إذا سلّم تسليماً مطلقاً بصحة نسبة سفر الشريعة إلى موسى، وبالتالي إلى الوحي الإلّهي على الصورة التي ظهر بها في كل مرة على يد هؤلاء الكهنة... فإن العوامل التي حجبت هذا السفر الإلّهي عن اليهود مدة طويلة ترجع في معظمها إلى المصالح الخاصة للكهنوت...

وهذا وحده كاف لأن يجعل كل عقل مفكر يميل إلى أن هذه العوامل نفسها قد لعبت دوراً في الصورة التي بعثت فيها من جديد قواعد الشريعة وقوانينها.

وأقصى ما يمكن هنا هو أن نعتبر التوراة التي بأيدينا إنتاجاً خالصاً للكهنوت اليهودي، وإنما من عمل أيدي الكهنة وحدهم، وأن الوحي الإلّهي ـ على فرض وجوده فيها بلا تحريف أو تبديل أو نقص ـ لا يمكن الاستدلال عليه أو تمييزه وسط خضمّ من أسفار وإصحاحات دوّنها كتبة التوراة بإملاء الكهنة داخل الهيكل... فإن سفر الشريعة الذي ذكر في مناسبتين حاسمتين في تاريخ اليهودية ليس له في التوراة اليهودية كيان مستقل... وليس بين أسفارها التسع والثلاثين ما يسمى بسفر الشريعة... فأين يا ترى يكون هذا السفر بين كل أسفار العهد القديم؟؟ وأغلب الظنّ أن كتبة التوراة قد فرقوا إصحاحاته وآياته

ونثروها في كل من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية. . . ففي ثنايا هذه الأسفار كثير من الوصايا والإرشادات والأحاديث التي يمكن نسبتها مباشرة إلى الإله.

وليس هناك من دليل على أن الكتبة قد توقفوا عن مواصلة عملية تهذيب التوراة وتطويرها وإضافة المزيد من أسفارها. . . فلقد كانوا يؤدون مهمتهم هذه حتى ظهور «السيد المسيح عليه السلام». . .

ولأول وهلة لم يكن المسيح ينظر إلى الكيفية التي يؤدون بها هذه المهمة الخطيرة بعين الرضا. . . وقد ظهر سخطه على هذه الطائفة في قوله لهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون. . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون حقوق الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم. . . لذلك تأخذون دينونة أعظم. . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً، ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً. . . ويل لكم أيها القادة العميان، القائلون: من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. . . . أيها الجهال والعميان. . . أيهما أعظم؟ الذهب أم الهيكل الذي يقدسه؟؟؟. . . ومن حلف بالمذبح فليس بشيء. . . ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. . . [إنجيل متى 12/18 :23][1].

وزيادة عما يثبته التاريخ الصادق والبحث العلمي المركز من أن ما عند اليهود اليوم وما تداولوه ويتداولونه بعد وفاة موسى عليه السلام ليس هو التوراة المنزلة عليه من ربه، وأنه من عمل أيدي الكهنة وحدهم وما يثبته التاريخ والبحث العلمي يجعل كل ذي عقل واع، وبصيرة يقظة نيّرة لا يتعامل معها ولا

(1) كتاب: الإسلام ضرورة عالمية ص 76 - 79.

يطمئن إليها على أنها كتاب منزّل. وكيف يتعامل معها ويطمئن إليها على أنها كتاب منزّل؟ والدلائل على وضعها وافترائها تبرز للعيان من ناحيتين.

الناحية الأولى: من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها أسفارها وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع تبيّن للباحثين أنها دوّنت بعد عصر موسى ـ عليه السلام ـ بأمد غير قصير وهذا ينبىء على أنها ليست التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ قال الدكتور علي عبد الواحد وافي:

وأهم أسفار العهد القديم هي أسفار القسم الأول التي ينسبها اليهود إلى موسى ويعتقدون أنها بوحي من الله وأنها تتضمن التوراة.

ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله انها قد ألّفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد ألّف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أي بعد النفي البابلي... (وهو إجلاء بني إسرائيل إلى بابل سنة 587 قبل الميلاد) وانها جميعاً مكتوبة بأقلام يهودية، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل. ثم قال:

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجّح الباحثون أن قسماً من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل السادس قبل الميلاد، ويشمل هذا القسم أسفار يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشد الأناشيد ومعظم أسفار الأنبياء، وأن

قسماً آخر منها قد ألف في الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس، وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد، ويشمل هذا القسم أسفار يونس وزكريا وقسماً من سفر دانيال[1].

الناحية الثانية: من ملاحظة ما اشتملت عليه من فساد في العقيدة ومن انحراف وتضارب واختلاط في التشريع.

فمن حيث العقيدة اشتملت هذه الأسفار المزعومة، القديمة منها كسفر التكوين، أو الحديثة، كسفر اللاويين على ما ينافي الألوهية، ويتبرأ منه الوحي المقدس فقد صوّرت الله سبحانه وتعالىٰ في صور مجسمة تجعله شبيهاً بخلقه، ووصفته بكثير من صفات النقص والضعف والكذب، والغفلة والجهل، كما نسبت لبعض أنبيائه ورسله كثيراً من الأعمال القبيحة التي تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي. بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس.

من ذلك ما جاء ـ حسب رواية هذه الأسفار ـ في قصة أبي الأنبياء ابراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجه. وهما في طريقهما إلى مصر، فقد ألف واضعو الأسفار، القصة، حسب هواهم وشهواتهم. وما في نفوسهم من انحطاط خلقي، إلى مستوى جعلوا فيه ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ يحتمي بجمال امرأته لتسلم له حياته. ولينال من المصريين من أمرائهم ووجهائهم، بواسطتها المال والخير الكثير، وهل مثل هذا الإسفاف يكون وحياً منزلاً من الله على أنبيائه؟.

وما جاء عن لوط ـ عليه السلام ـ وابنتيه حيث تقص أسفارهم عنهم فتذكر: أنه لم ينج من أهل قريتي سودوم وجوموره اللتين دمرهما الله تعالىٰ لما

(1) كتاب: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام. الدكتور علي عبد الواحد وافي ط الأولىٰ سنة 1384هـ/ 1964 م طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة ص 16 - 18.

كان يرتكبه أهلهما من إتيان الذكران إلا لوط وابنتاه. وقد أقام ثلاثتهم عقب ذلك في غار في جبل مرتفع، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما: «إن أبانا قد أصبح شيخاً كبيراً وليس في هذا المكان رجال يتصلون بنا على النحو الذي يفعله ذكور الناس مع إناثهم.

وإذا بقي الأمر على هذا الحال فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة هي أن نسقي أبانا خمراً حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتي منه بذرية تخلد نسله» وأنفذتا ما اتفقتا عليه، وقضت معه الكبرى الليلة الأولى والصغرى الليلة الثانية، وواقع لوط كلتيهما وهو في نشوة سكره، فحملتا منه، وجاءت الكبرى بغلام أسمته مؤاب، وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون ومن هذين الغلامين تفرع شعبان كبيران هما شعب المؤبيين وشعب العمونيين[1].

وما جاء في السفر الثاني من سفري صموئيل عن داود ـ عليه السلام ـ من أنه أحبّ امرأة جميلة هي زوجة لأحد جنوده فزنى بها وأحبلها في غياب زوجها، ثم استقدمه من معسكره لأهله لغاية أن يتصل بزوجته ـ وهو في غفلة من الأمر، وبذلك ينسب الحمل عند وضعه إليه ولا يفتضح أمر داود النبي. وعند عدم حصول الغاية المبيت لها بسبب ما عليه هذا الجندي من شعور وطني وبطولي منعه من أن يبيت مع زوجه يمرح ويلهو، وإخوانه في ساحة الحرب يواجهون عدوهم، كاد له داود ـ عليه السلام ـ فأرسله إلى مقدمة الواجهة حيث لقي مصرعه وتخلص منه، ثم ضمّ زوجته لنسائه بعد أن انقضى حدادها على زوجها، ووضعت حملها وهي في عصمة النّبي داود وبذلك ستر ما صدر منه فلم يفتضح أمره.

والقصة بهذا الأسلوب السمج وبهذا التصوير الدنيء محض افتراء على

(1) كتاب «الأسفار المقدسة» ص 41 - 42 وقد جاء في التعليق: فقرات 30 - 39 من الإصحاح 19 من سفر التكوين.

نبيّ الله، ولا يتصور صدور وقائعها من رجل عادي ذي خلق، فضلاً عن نبيّ مرسل كريم.

وما جاء في سفر الخروج أحد أسفار التوراة المزعومة عن قصة عبادة بني إسرائيل للعجل فقد جاء فيها ما يثبت خيانة هارون ـ عليه السلام ـ لرسالة ربه ودفعه بني إسرائيل إلى الشرك، وهذا من واضعي الأسفار يمثل من ناحية سفاهة أحلامهم وعقولهم ومن ناحية أخرى يمثل استخفافهم برسلهم وعدم احترامهم لهم جاء في كتاب «الأسفار المقدسة» ما يلي:

لقد أورد سفر الخروج ـ هو أحد أسفار توراتهم المزعومة ـ قصة عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي في صورة غريبة تدل على أن محرري هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة، ولا يرجون لهم وقاراً، ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أي نقيصة، حتى خيانة الرسالة نفسها التي بعثوا من أجلها، ودفع قومهم إلى الشرك بالله فقد نسب هذا السفر إلى هارون نفسه ـ عليه السلام ـ أنه قد يسّر لبني إسرائيل سبيل الشرك ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام، فصنع لهم بيديه في سيناء عجلاً من ذهب ليعبدوه من دون الله.

فذكر في إصحاحه الثاني والثلاثين أن موسى لما غادر قومه لتلقي الألواح من ربّه وطال أمد غيابه عنهم، طلبوا إلى هارون أن يصنع لهم إلهاً تدركه أبصارهم لأنهم لا يعلمون ما انتهى إليه أمر موسى، ولا يدركون الإله الذي يحدثهم عنه. فطلب إليهم هارون أن يحضروا له جميع أقراط الذهب المدلاة من آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم، فجمعوا هذه الحلي، فصهرها بنفسه وصنع منها عجلاً ذهباً ليتخذوه إلهاً، فخرّ بنو إسرائيل سجّداً له، وقرّبوا إليه القرابين، وقالوا هذا إله إسرائيل الذي أخرجهم من مصر وانقذهم من شقائها[1].

ومن حيث الشريعة فقد اشتملت أسفار التوراة الموضوعة على كثير من

(1) المرجع السابق ص 44.

الانحراف والتضارب واختلاط المسائل إلى مستوى لا يترك مجالاً للشك في أنها ليست التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ من ربّه، وإنما هي أسفار مملاة وموضوعة من أحبار اليهود ضمنوها ما في نفوسهم من عنصرية ومن حقد على غيرهم من البشرية وما في أذهانهم من اضطراب ومن تداخل مشين، وما في تصوراتهم من خرافات وأساطير[1].

فجميع ما يتصل بالتوراة المتداولة عند اليهود اليوم من ملابسات ذاتية تمثل ما اشتملت عليه من فساد في العقيدة ومن انحراف وتضارب واختلاط في التشريع، ومن ملابسات خارجية تمثل تاريخ ومراحل تدوينها التي لا تتصل بموسى وبفترة نزول الوحي عليه، يجعل ذوي العقول وأولي الألباب لا يتعاملون معها، ولا يسلمون بأنها الكتاب المنزل على موسى ـ عليه السلام .

ورغم كل ما تقدم فنحن معاشر المسلمين المؤمنين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم المنزل عليه من ربّه، من باب أولى وأحرى لا نتعامل مع التوراة التي يتداولها اليهود اليوم على أنها كتاب منزل. وذلك لأن القرآن الكريم الذي ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[2] في نصوص عديدة من آياته الكريمة تبين لنا أن ما عند اليهود وما عند النصارى ليس هو التوراة والإنجيل المنزلين على موسى وعيسى، فإن اليهود بدّلوا التوراة وغيّروها وحرّفوها حسب أهوائهم وشهواتهم، وكذلك النصارى بدّلوا وغيّروا وحرّفوا الإنجيل.

ومن الآيات المبينة لطبيعة اليهود الملازمة لهم من نقضهم الميثاق وذلك بتكذيبهم الرسل وقتلهم الأنبياء، وبكتمانهم صفة محمد ﷺ المثبتة في التوراة المنزلة على رسولهم موسى ـ عليه السلام ـ وبمواصلة تحريفهم للتوراة بالتبديل

---

(1) في كتاب «الأسفار المقدسة» تفصيل موسع في هذا الموضوع فليرجع اليه.
(2) سورة فصلت آية 42.

والتغيير حسب أهوائهم وشهواتهم، قوله تعالىٰ: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذكروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم**﴾[1].

فقوله تعالىٰ ـ مخاطباً محمداً عليه الصلاة والسلام ـ وهو خطاب لأمته ليكونوا على بيّنة من أمر اليهود ـ: ﴿**ولا تزال تطّلع على خائنة منهم**﴾ إبراز لطبيعتهم التي لا تفارقهم من الكفر والضلال ومن نقضهم الميثاق وتحريف الكلم عن مواضعه. وهذا يستفاد من قوله: ﴿**ولا تزال**﴾ وهو تعبير يفيد التجدد والاستمرار والدّوام. ومثل هذا التعبير في الدلالة على دوام عداوة الكفار للمؤمنين واستمرارها قوله تعالىٰ: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾[2].

وقوله: ﴿**إلا قليلاً منهم**﴾ قال المفسرون في تأويلهم له: المراد بهم الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ وبالكتاب الذي أنزل عليه كعبد الله بن سلام وأصحابه، وأمثالهم الذين يتبين لهم الحق من حين لآخر فيؤمنوا به.

وسبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض المواثيق، وفي الكفر والضلال وفي تحريف الإنجيل المنزل على عيسى ـ عليه السلام ـ وهذا يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذكروا به**﴾[3] من ذلك الذي نسوه وبدلوا الإنجيل وحرّفوه من أجله الإيمان بمحمد ﷺ وبأنه رسول الله إلى الناس كافة. ومن الآيات أيضاً المبينة لطبيعة اليهود في التحريف والتغيير والتبديل افتراء على الله، واستخفافاً بالحق عن قصد وعلم قوله تعالىٰ: ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من**

---

(1) سورة المائدة آية 13.

(2) سورة البقرة آية 217.

(3) سورة المائدة آية 14.

الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[1] قال الفخر الرازي في تأويله لهذه الآية:

اعلم أن هذه الآية تدل على أن الآية المتقدمة ـ يعني قوله تعالىٰ: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم*﴾**[2] نازلة في اليهود بلا شك لأن هذه الآية نازلة في حقّ اليهود وهي معطوفة على ما قبلها فهذا يقتضي كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود أيضاً.

واعلم أن (اللَّيّ) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج يقال: لويت يده، والتوى الشيء إذا انحرف، والتوى فلان عليّ إذا غيّر إخلاصه عن الاستواء إلى ضدّه، ولوى لسانه عن كذا إذا غيّره ولوى فلاناً عن رأيه إذا أماله عنه، وفي الحديث: «ليّ الواجد ظلم»[3].

وقال تعالىٰ: **﴿وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾**[4] إذا عرفت هذا الأصل ففي تأويل الآية وجوه:

الأول: قال القفال ـ رحمه الله ـ (يلوون ألسنتهم معناه، أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفوها في حركات الاعراب تحريفاً يتغيّر به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية.

---

(1) سورة آل عمران آية 78.

(2) سورة آل عمران آية 77.

(3) أورده الإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني في كتابه «تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة من الحديث» بالصيغة التالية: «ليّ الواجد يحل عرضه وعقوبته» وعلّق عليه بقوله: «رواه أبو داود والترمذي من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه مرفوعاً، وعلقه البخاري وصححه ابن حبان والله تعالى أعلم. وبنفس الصيغة أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ـ حرف اللام ـ وأشار إليه بعلامة: صحيح. وأما بالصيغة التي أوردها الفخر فلم أجدها فيما راجعت من كتب الحديث.

(4) سورة النساء آية 46.

فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة علي نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿**يلوون ألسنتهم**﴾ وهذا تأويل في غاية الحسن.

الثاني: نقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتاباً شوّشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ ثم قالوا: (هذا من عند الله).

إذا عرفت هذا فنقول: ان ليّ اللسان تثنية بالتشدق والتنطع والتكلف وذلك مذموم فعبّر الله تعالىٰ عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بليّ اللّسان ذمّاً لهم وعيباً، ولم يعبّر عنها بالقراءة، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد فيقولون في المدح: خطيب مصقع، وفي الذم مكثار ثرثار.

فقوله: ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب**﴾ المراد قراءة ذلك الكتاب الباطل وهو الذي ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله**﴾ ثم قال: ﴿**وما هو من الكتاب**﴾ أي وما هو الكتاب الحقّ المنزل من عند الله[1].

فهذا التأويل من الفخر الرازي الذي اعتمد فيه على الإطار القرآني وعلى الآثار المسندة لبعض الصحابة، وعلى أقوال العلماء، وعلى الاستعمال اللغوي السليم، وهو عمل يدل على يقين معرفة، ورسوخ علم، وتحقيق مركز. لكن يبدو لي أن حصر تحريف اليهود، وتبديلهم وتغييرهم للتوراة في الآيات الدالة على نبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام لا يتماشى والعموم المستفاد من الآية.

فاليهود ـ وإن كان هدفهم الأول محاربة الإسلام وجحد رسالة محمد ﷺ وإزالة نعته الوارد في التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ فقد تجاوزوا

---

(1) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي مج (7 - 8) ج 8 ص 106 - 107.

تحريف النعت الوارد والمبشر بالرسالة الخاتمة إلى تحريف التوراة بصفة عامة وتبديلها بما يتماشى وأهواءهم الضالة وشهواتهم الآثمة وما في الآية من عموم على ذلك ويبين نوع طبيعتهم المقام على المكر والخداع وعلى محاربة الحق، والكذب على الله عن قصد وعلم.

قال العلامة الالوسي في ختام تفسيره لهذه الآية: ومما يؤيد وقوع التغيير في كتب الله تعالىٰ وأنها لم تبق كيوم نزلت وقوع التناقض في الأناجيل وتعارضها وتكاذبها وتهافتها، ومصادمتها بعضها ببعض، فإنها أربعة أناجيل: الأول إنجيل متى وهو من الاثني عشر الحواريين وإنجيله باللغة السريانية ـ كتبه بأرض فلسطين بعد رفع المسيح إلى السماء بثماني سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً، والثاني إنجيل مرقس وهو من السبعين[1] وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد رفع المسيح باثنتي عشرة سنة ـ وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً، والثالث إنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة الاسكندرية بعد ذلك ـ وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً، والرابع إنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح ـ كتب إنجيله بمدينة اقسس من بلاد رومية بعد رفع المسيح بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً، وقد تضمن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها، أو ما يخالفها، وفيها ما تحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله تعالىٰ أصلاً، فمن ذلك أن متى ذكر أن المسيح صلب وصلب معه لصان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وأنهما جميعاً كانا يهزءان بالمسيح مع اليهود ويعيرانه، وذكر لوقا خلاف ذلك

(1) المراد بالسبعين هم تلاميذ المسيح الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقادهم من بعد رفعه وألهموا بالتبشير بالمسيحية. كما الهموا مبادئها ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية: «ولقد اجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته، وانه في هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه، وفي احدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ» ـ عن كتاب: محاضرات في النصرانية لمحمد أبي زهرة ص 45 ط 3 سنة 1385هـ/ 1966م مطبعة يوسف.

فقال: إن أحدهما كان يهزأ به، والآخر يقول له: أما تتقي الله تعالىٰ أما نحن فقد جوزينا، وأما هذا لم يعمل قبيحاً، ثم قال للمسيح: يا سيدي اذكرني في ملكوتك، فقال: حقاً إنك تكون معي في الفردوس.

ولا يخفى أن هذا يؤول إلى التناقض فإن اللصين عند متى كافران، وعند لوقا احدهما مؤمن والآخر كافر وأغفل هذه القصة مرقس، ويوحنا. ومنه أن لوقا ذكر أنه قال يسوع إن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس الناس ولكن ليحيي، وخالفه أصحابه وقالوا بل قال إن ابن الإنسان لم يأت ليلقي على الأرض سلامه لكن سيفاً ويضرم فيها ناراً، ولا شك أن هذا تناقض، احدهما يقول جاء رحمة للعالمين، والآخر يقول: جاء نقمة على الخلائق أجمعين ومن ذلك أن متى قال: قال يسوع للتلاميذ الاثني عشر: أنتم تكونون في الزمن الآتي جلوساً على اثني عشر كرسياً تدينون اثني عشر سبط إسرائيل فشهد للكل بالفوز والبر عامة في القيامة، ثم نقض ذلك متى وغيره وقال: مضى واحد من التلاميذ الاثني عشر وهو يهوذا صاحب صندوق الصدقة فارتشى على يسوع بثلاثين درهماً وجاء بالشرطي فسلم إليهم يسوع فقال يسوع: الويل له، خير له أن لا يولد. ومنه أن متى أيضاً ذكر أنه لما حمل إلى فيلاطس القائد قال: أي شرّ فعل هذا؟ فصرخ اليهود وقالوا: يصلب، يصلب. فلما رأى عزمهم وأنه لا ينفع فيهم أخذ ماء وغسل يديه وقال: أنا بريء من دم هذا الصديق وأنتم أبصر، وأكذب يوحنا ذلك، فقال: لما حمل يسوع إليه قال لليهود: ما تريدون؟ قالوا: يصلب، فضرب يسوع ثم سلمه إليهم، إلى غير ذلك مما يطول. فإذا وقع هذا التغيير والتحريف في أصول القوم ومتقدميهم فما ظنك في فروعهم ومتأخريهم.

وإذا كـــان في الأنسابيب حيف وقع الطيش في صدور الصعاد[1]

---

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي مج (3 - 4) ج 3 ص 206 - 207.

فالألوسي في أول قوله هذا يذهب إلى التحريف والتغيير والتبديل وقع في سائر كتب أهل الكتاب أي في التوراة والإنجيل ثم أيد قوله بما هو موجود في الأناجيل الأربعة التي يسندها أصحابها إلى عيسى عليه السلام من تناقض وتعارض ومن تكذيب لبعضهما بعضاً، ومن تهافت وتصادم مما يجعل العقل المؤمن السليم ينفي أن يكون هذا من الكتب المنزلة من الله.

وقد ذكر ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» عدة أمثلة من بهتان أحبار اليهود وافترائهم على الله، وعلى رسله إليهم إلى مستوى الكفر والالحاد، وإلى مستوى السخافة التي يشمئز منها العقل الواعي السليم ويمجها الذوق الصافي الرفيع فقال:

نذكر طرفاً يسيراً من كثير جدّاً من كلام أحبارهم الذين عنهم أخذوا كتابهم ودينهم وإليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم وكتب الأنبياء وجميع شرائعهم ليرى كل ذي فهم مقدارهم من الفسق والكذب.

ثم قال: ذكر أحبارهم وهو في كتبهم مشهور لا ينكرونه ـ عند من يعرف كتبهم ـ أن إخوة يوسف إذ باعوا أخاهم طرحوا اللعنة على كل من بلّغ إلى أبيهم حياة ابنه يوسف، ولذلك لم يخبره عزّ وجلّ بذلك ولا أحد من الملائكة، فاعجبوا لجنون أمة تعتقد أن الله خاف أن يقع عليه لعنة قوم باعوا النّبيّ أخاهم وعقوا النبيّ أباهم أشد العقوق، وكذبوا أعظم الكذب، فوالله لو لم يكن في كتبهم إلا هذا الكذب وهذا الحمق وهذا الكفر لكانوا به أحمق الأمم وأكذبهم، فكيف ولهم ما قد ذكرنا ونذكر إن شاء الله تعالىٰ.

وفي بعض كتبهم أن هارون ـ عليه السلام ـ قال الله تعالىٰ إذ أراد أن يسخط على بني إسرائيل: يا ربّ لا تفعل فلنا عليك ذمام وحقّ لأن أخي وأنا أقمنا لك مملكة عظمية.

وهذه طامة أخرى حاشا لهارون ـ عليه السلام ـ أن يقول هذا

الجنون! . . . أين هذا الهوس، وهذه الرعونة من الحق النيّر إذ يقول تعالىٰ: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا علي إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾[1].

وفي بعض كتبهم أن الصورتين اللتين أمر الله تعالىٰ موسى أن يصورهما على التابوت خلف الحجلة في السرادق إنما كانتا صورة الله وصورة موسى ـ عليه السلام ـ معه. تعالىٰ الله عن كفرهم علوّاً كبيراً[2].

وبعد ذكره لجملة من الأمثلة[3] من هذا النوع وفي هذا المستوى التي توضح سخافة أحبار اليهود في تحريفهم للتوراة ولكتب أنبيائهم وفي كفرهم وضلالهم وفسقهم ـ وهم يفترون على الله الكذب ـ وينالون بألسنتهم وأقلامهم من جلاله وقدسه، ومن ألوهيته إلى مستوى الشرك والالحاد قال: هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر والمناقضات اللائحة التي لا شك معه في أنها كتب مبدلة محرفة مكذوبة، وشريعة موضوعة مستعملة من أكابرهم ولم يبق بأيديهم بعد هذا شيء أصلاً ولا بقي في فساد دينهم شبهة بوجه[4].

وبهذا فما عند اليهود والنصارى مما يسمونه العهد القديم والعهد الجديد ليس هو المنزل من الله على موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وإنما هو من إملاءات أحبار اليهود، ورجال الدين النصارى مما يتماشى مع اهوائهم وشهواتهم. ثم نسبة ذلك منهم إلى الله كذباً وافتراء.

ومن أبعاد القرآن الكريم، ومن أبعاد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

---

(1) سورة الحجرات آية 17.

(2) كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج 1 ص 217 - 218 دار الكتاب اللبناني بدون تاريخ.

(3) انظر نفس المرجع والجزء ص 218 -219 -220 -221 -222 -223 -224.

(4) انظر نفس المرجع والجزء ص 224.

التي أمر بتبليغها إلى الناس كافة حتى يكونوا في إيمانهم وفي سلوكهم العملي على بينة وهدى. من أبعاد القرآن والرسالة المحمّديّة تنبيه اليهود والنصارى إلى ما وقعوا فيه من إفك وضلال ومن انحراف عن طريق الحق وتحذيرهم من المآل السيء الذي ينتظرهم ويترصدهم في كل حين نتيجة تحريفهم لكتبهم وكذبهم وافترائهم على الله.

ومع تنبيه أهل الكتاب وتحذيرهم، إنارة السبل أمام عباد الله المؤمنين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من إفك وبهتان، وحتى لا ينخدعوا ببهتان اليهود وضلال النصارى، قال الله تعالىٰ: ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون* يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون***﴾[1].

في هاتين الآيتين من سورة آل عمران بيان لما وقع فيه اليهود والنصارى من إفك وبهتان ومن كفر وضلال، فهم يكفرون بالآيات الواردة في التوراة والإنجيل مثل البشارة بمحمّد عليه الصلاة والسلام ومثل الأخبار بأن ابراهيم ـ عليه السلام ـ كان حنيفاً مسلماً وبأن الدين هو الإسلام، وبأن القرآن هو الكتاب الخاتم المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين لهداية البشر كافة.

وكفرهم هذا يمثل الإصرار على الباطل، والعناد ضدّ الحق، لأنهم ـ حسب ما في كتبهم غير المحرفة من دلائل وآيات ـ وما في القرآن من حجة معجزة لا تقبل الطعن تخاطب العقل وتقنعه باستمرار وعلى الدوام، هم على بيّنة وعلم بحقيقة وصدق ما جحدوا به، هم على علم بذلك بلا شبهة إلى مستوى يجعل علمهم بمنزلة علم المشاهدة.

ولكن عنادهم ضدّ الحق، وإصرارهم على الباطل أفقدهم الوعي والرشد فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق، والحال أنهم، لما عندهم من كتاب،

(1) سورة آل عمران آيتا 70 - 71.

أرباب علم ومعرفة لا أرباب جهل وخرافة غير أنهم استجابة منهم لدواعي الكفر والضلال رضوا لأنفسهم وحكموا عليها بالجهل والخرافة، ثم عملوا جاهدين على أن يحملوا الناس على ما هم عليه من كفر وإلحاد، ومن غواية وضلال.

قال الفخر الرازي ـ أثناء تفسيره وتأويله للآيتين:

اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفتان: «إحداهما» انهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم كانوا يعلمون بقلوبهم أنه رسول حق من عند الله، والله تعالىٰ نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولىٰ «وثانيهما» انهم كانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات، وفي إخفاء الدلائل والبينات، والله تعالىٰ نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية، فالمقام الأول مقام الغواية والضلال، والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلال[1].

وقال تعالىٰ، في هذا المجال أيضاً ـ مبيناً أبعاد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. مع أهل الكتاب من تنبيههم وتحذيرهم مما هم عليه من تحريف وتغيير وتبديل لما جاءت به كتبهم، وإن محمّداً جاء لينقذهم ـ إن استجابوا له ـ ويخرجهم من ظلمات كفرهم وإلحادهم، ومن سفاهة عقولهم، وسخافة آرائهم، إلى نور الهدى وضياء الحق. قال ـ مبيناً جميع ذلك ـ: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم***﴾[2].

وبهذا فالقرآن الكريم هو الكتاب المنزل الذي لا ريب فيه، والذي وصل إلى الناس محفوظاً كما أنزل من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل، وإنه المهيمن

---

(1) التفسير الكبير للرازي مج (7 - 8) ج 8 ص 92.

(2) سورة المائدة آيتا 15 - 16.

على سائر الكتب المنزلة من قبله، وهو الحكم عليها، المثبت للحق، والنافي للباطل والمحارب للأهواء، ويؤخذ هذا من قوله تعالىٰ: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾**[1].

في قوله تعالىٰ: **﴿ومهيمناً عليه﴾** لعلماء اللغة وللمفسرين عدّة أنظار من حيث اللغة والتأويل قال الفخر الرازي:

وقوله: **﴿ومهيمناً عليه﴾** فيه مسائل:

المسألة الأولىٰ: في المهيمن قولان: الأول: قال الخليل وأبو عبيدة: يقال قد هيمن الرجل يهيمن إذا كان رقيباً على الشيء وشاهداً عليه حافظاً قال حسان:

إن الكتــاب مهيمن لنبيّنــا والحق يعـرفـه ذوو الألبـاب

والثاني: قالوا: الأصل في قولنا: آمن يؤمن فهو مؤمن، أأمن يؤامن فهو مؤأمن بهمزتين، ثمّ قلبت الأولىٰ هاء كما في: هرقت وأهرقت، وهيّاك وإياك، وقلبت الثانية ياء فصار مهيمناً، فلذا قال المفسرون: (ومهيمناً عليه) أي أميناً على الكتب التي قبله.

المسألة الثانية: إنما كان القرآن مهيمناً على الكتب لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخاً البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالىٰ: **﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون﴾**[2] وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبدا، فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبداً.

---

(1) سورة المائدة آية 48.

(2) سورة الحجر آية 9.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرىء (ومهيمناً عليه) بفتح الميم لأنه مشهود عليه من عند الله تعالىٰ بأن يصونه عن التحريف والتبديل لما قررنا من الآيات، ولقوله ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾[1] والمهيمن عليه هو الله تعالىٰ[2].

يتجلى من هذا التأويل ومن هذه الأنظار أن القرآن الكريم بحكم من الله وبأخبار منه أنه أنزله على نبيه محمد ﷺ ليكون حافظاً لدينه، وحاملاً لعقيدته وهديه وشريعته التي عليها تبنى استقامة الناس في الحياة، وبها يسعدون ويسيرون على بينة من أمرهم، وعلى هدي في أعمالهم وسلوكهم، وليكون أيضاً رقيباً وشاهداً وحكماً على الكتب المنزلة من الله من قبله، وحافظاً لما جاءت به من حقّ ومن نور وهدى، وفاضحاً لزيف وبهتان وافتراء من شوهوها بالتحريف والتبديل والتغيير استجابة لهواهم الضال ولشهواتهم الآثمة، وموجهاً الرسول الكريم الذي أنزل عليه وأمته المهتدية بهديه أن لا يتبعوا أهواء هؤلاء الكافرين الضالين الذين بدّلوا دينهم وحرّفوا كتبهم.

وهذا يؤخذ من صريح قوله تعالىٰ: ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ**﴾.

وإذا كانت هذه منزلة القرآن ومكانته التي لم تكن لغيره من سائر الكتب المنزلة من قبله كيف يسمح لنفسه (خلف الله) بأن يقول: إن التوراة المحرفة كانت سنداً للقرآن، وإن الرأي الديني اليهودي الضال والسخيف كان مصدراً لقصصه، ومقياساً لصحة أخباره وأنبائه ولو أجهد نفسه واطلع على أقوال الرسول في القرآن، وعلى رأيه ورأي أصحابه من بعده في الكتب المحرفة التي ينسبها أهل الكتاب إلى الله، كما أجهد نفسه في الاطلاع على أقوال علماء الغرب

---

(1) سورة فصلت آية 42.

(2) التفسير الكبير للرازي مج (11 - 12) ج 12 ص 10 - 11.

المفتون بهم والولهان بأنظارهم ومقاييسهم، لعلم أن ما يدّعيه من أنّ التوراة المحرفة كانت سنداً للقرآن وأن الرأي اليهودي كان مصدراً لقصصه هراء وسخافة. ولعلم أن تأويل القرآن الكريم لا يكون تأويلاً علمياً منهجياً، صحيحاً مقبولاً من أولي العلم الراسخين ذوي المعرفة الحق، إلا متى كان سنده الهدي القرآني «الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» والتوجيه النبوي الذي من وظيفته بيان ما أجمل من القرآن، وتقييد ما أطلق منه، وتخصيص ما كان عاماً.

ولكن أنّى له أن يطلع على أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلى أقوال أصحابه ـ رضوان الله عنهم ـ من بعده، وهو مشغول بما عن اليهود والنصارى، ومفتون به.

وإليه وإلى أمثاله أسوق بعض هذه الأقوال، ليدركوا ـ إن كانوا مستعدين للإدراك ـ إن القرآن ما ينبغي له أن يستمد من غيره ولا أن يستند له، لأنه وحي من الله عالم الغيب والشهادة وكلامه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله ليبلغ ما فيه من عقيدة وهداية وشريعة إلى الناس كافة، وإن الرسول الأكرم ما ينبغي له أن يأخذ من غير ربّه الذي شرّفه بالرسالة الخاتمة، وبالكتاب المهيمن على سائر الكتب.

أخرج الترمذي ـ رواية عن الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أما إنّي قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألاَّ أنّها ستكون فتنة فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتى

قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجبا* يهدي إلى الرشد﴾[1] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم[2].

وأورد الحافظ ابن كثير في تفسيره فقال: قال الإمام أحمد: حدثنا سريع ابن النعمان، أخبرنا هشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب: أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبيّ ﷺ فغضب وقال:

«أمتهوكون[3] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيّاً لما وسعه إلا أن يتبعني». ثم أردفه بحديث آخر فقال: وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت، قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسري عن النبيّ ﷺ، وقال: والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وانا حظكم من النبيين[4].

وأخرج السيوطي في تفسيره الدر المنثور فقال: أخرج أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ونصر المقدسي في الحجة، والضياء في المختارة، عن خالد بن عرفطة، قال: كنت جالساً عند عمر، إذ أتاه رجل من عبد القيس، فقال له عمر: أنت فلان العبدي؟ قال نعم، فضربه بقناة معه، فقال الرجل: ما

---

(1) سورة الجن آيتا 1 - 2.

(2) التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول ج 4 ص 7.

(3) التهوك: الوقوع في الأمر من غير روية، وقيل: هو التحير.

(4) تفسير ابن كثير ج 4 ص 295 - 296.

لي يا أمير المؤمنين؟ قال: اجلس، فجلس، فقرأ عليه ـ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين ـ إلى قوله: ـ لمن الغافلين﴾[1].

فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: انت الذي نسخت كتاب «دانيال»؟ قال: مرني بأمرك أتّبعه قال: انطلق فامحه بالحميم[2] والصوف ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك انك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنك[3]. عقوبة ثم قال: اجلس فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ: ما هذا في يدك يا عمر؟ فقلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علماً، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة. فقالت الأنصار: أغضب نبيّكم ـ السلاح ـ السلاح فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً ولقد أوتيتم بها بيضاء نقيّة، فلا تتهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ فقمت فقلت: رضيت بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبك رسولاً. ثم نزل رسول الله ﷺ[4].

وبعد هذا أليس ما يدّعيه (خلف الله) من أن التوراة المحرفة كانت سنداً للقرآن وأن الرأي الديني اليهودي كان مصدراً لقصصه، لم يكن وليد بحث مركز، ولا وليد منهجية فنية مستقيمة، وإنما هو وليد هوى آثم وانتماء لتيارات ومذاهب ضالة حيث رأيه هذا هو بعينه رأي اليهود والملاحدة أعداء الإسلام والقرآن ورأي من هو على شاكلتهم ممن يحاربون الإسلام، ويثيرون الشبهات حول القرآن الكريم جاء يردده ويدعي أنه من البحث العلمي الأدبي المركز، من

---

(1) سورة يوسف آيات 1 -2 -3.

(2) الحميم: الماء الحار.

(3) نهكه: بالغ في عقوبته.

(4) الدر المنثور ج 4 ص 3.

أمثال افتراءاتهم من أن القرآن ليس كتاباً منزلاً، وإنما هو من صنع محمد ﷺ ومن تأليفه، وإن سنده في صنعه وتأليفه هو ما عند اليهود من رأي، وما في توراتهم المحرفة من أخبار.

وهذه المحاربة قام بها المشركون الأميون المتخلفون زمن محمد عليه الصلاة والسلام ـ وقام بها معهم أهل الكتاب، من اليهود والنصارى وهم وقتها في تفكيرهم وآرائهم أميون متخلفون كمشركي العرب تماماً، وإلى هذه التسوية في الأمية والتخلف يشير القرآن ـ وهو يحدثنا عن صراع اليهود والنصارى فيما بينهم ـ بقوله: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم**﴾[1].

فالمحاربة للإسلام ولقرآنه قائمة من ذلك الوقت إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقودها الحاقدون من أهل الكتاب اليهود والنصارى، ومن الملاحدة، صنو المشركين، ومن على شاكلتهم من المقلدين لهم المعجبين بضلالتهم وافترائهم يقودونها جميعاً بنفس ونفسية الأميين المتخلفين زمن البعثة المحمّدية.

والعجيب من أمر هؤلاء انهم وإن كانوا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ظنّوه كل شيء فهو عندهم البداية والنهاية، وهو ملاك أمرهم وكل هدفهم في مسيرتهم بين البداية والنهاية، وإنهم لا يسلمون بشيء إلا إذا خضع لمقاييس المشاهدة والمعاينة المؤيدة بأحكام العقل، فإنهم في حديثهم عن الدين الإسلامي وفي مبلغ علمهم به، يتخلون عن كل ذلك ويصبحون يمثلون العناد والتعصب إلى مستوى الأمية والتخلف مما جعلهم يردّدون ويعيدون ما قاله المشركون زمن البعثة وهم في أميتهم وتخلفهم العلمي أشهر من أن يوصفوا

(1) سورة البقرة آية 113.

بذلك، ومن أن يقام الدليل على ما وصفوا به. فقد قال الأميون من مشركي قريش: إن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكتب هذه الأخبار التي يخبرنا بها، وإنها ليست من الوحي، وإن الذي يعلمه إياها بشر، وإنها من أساطير الأولين، وعن قولهم السخيف هذا الدال على مدى أميتهم وتخلفهم وعن مدى جهلهم وعنادهم. والذي هو قول جميع الكافرين برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبالحق وبالكتاب الذي أنزل عليه، قال تعالىٰ ـ مبيناً زيغهم وكذبهم وتحاملهم على الحق، وتجاوزهم لمنطق الرشد، ولجدية القول وعدالة الحكم: ﴿**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً .وزوراً* وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا* قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً***﴾[1].

فهذا من الله عز وجلّ بيان لنوع ما يضمره هؤلاء الكافرون المحاربون للحق من حقد وتحامل على محمد ﷺ وعلى كتابه المنزل. وما يقولونه عنه من سخافة في الرأي، ومن بهتان وزور، ثم يرد عليهم بما يبكتهم، ويبرز عنادهم وسخافة قولهم، وسيبقى هذا البيان والرد خالدين خلود القرآن يزريان بهم وبطريقة تفكيرهم، وببدائية رأيهم. وبسخافة حكمهم، وبمن يذهب مذهبهم ويفكر تفكيرهم، عبر العصور والأجيال، إلى نهاية الحياة، كما سيبقى هذا البيان وهذا الرد يلفتان نظر أولي العلم اليقيني والمعرفة الحق إلى التأمل في القرآن، وإلى التدبر في آياته حتى يتضح لهم بجلاء انه لا يمكن أن يكون من تأليف البشر لأنه بمبناه ومعناه، وبأبعاد هديه، وعقيدته وشريعته، يفوق مواهب ومدارك البشر مجتمعة بله مدارك ومواهب بعض منهم. وإلى هذا يشير قوله تعالىٰ:

---

(1) سورة الفرقان آيات 4 -5 -6.

﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض﴾ أي الله الذي ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[1].

وصاحبنا (خلف الله) في آرائه وأقواله في غفلة من هذا كله، أو في تغافل حيث يتمادى في إبداء ما يراه بحثاً علمياً مركزاً، وما يدّعيه انه عمل فني وتأويل للمراد من القصص القرآني تأويلاً يبعده ـ حسب رأيه ـ عما أوقعه فيه أصحاب الثقافة الضحلة، والعقل الضيق، والنظر القصير، ويعني بذلك علماء المسلمين الذين يعارضونه فيما ذهب إليه من رأي سخيف لا يستقيم علمياً ولا فنياً.

وهنا ينبغي أن أبين موقفه من علماء المسلمين إزاء موقفه من علماء الغرب.

فعلماء الغرب، هو مفتون بهم ومبهور بنظرياتهم ومقاييسهم إلى مستوى الهيام والحب الأعمى، ولذلك يجب اخضاع قصص القرآن لنظرياتهم ولمقاييسهم من غير احتراز رغم ما في نظرياتهم من تحامل على الإسلام وكتابه نتيجة جهلهم من ناحية، وعدائهم له من ناحية أخرى، ورغم ما في أبحاثهم من دسّ ومن تآمر ومن إثارة للشبهات.

وعلماء الإسلام الذين يفهمون القرآن حقّ الفهم، وينزلون قصصه في إطاره العام وفي هديه الشامل، ولا يتعدون بها ـ وهم يؤولون ما فيها من إشارات ويحللون أبعاد تلك الإشارات ـ عن مراد الله وعن بيان رسوله ﷺ الذي أوكل له البيان والتفصيل، هو متحامل عليهم وساخر بهم إلى مستوى انساه تحامله وسخريته ما يدعي لعمله من موضوعية ومن بحث علمي، ومن إبراز للنواحي الفنية، التي هي عند أصحابها الجديرين بها تتسامىٰ عن الهبوط

---

(2) سورة سبأ آية 3.

والإسفاف، فراح يصف علماء المسلمين هؤلاء الذين خالفوه فيما ذهب إليه وأبانوا له ما فيه من تهافت على القرآن، ومن ضحالة في البحث ومن سخافة في التأويل والاستنتاج، راح يصفهم بأنهم أصحاب ثقافة ضحلة، وعقول ضيقة ونظر قصير، وبأنهم رجعيون جامدون، وهي ألفاظ سباب وشتم تعوّد الملاحدة ومرّوجو المذاهب الضالة والتيارات الهدامة، وهم الذين يصفون أنفسهم بالعلمانيين تعوّدوا أن يصفوا بها سبّا وشتماً من يخالفهم الرأي، ويفضح ما عندهم من باطل ومن افتراء وكذب على العلم والمعرفة، ومن استخفاف من عمل الجادين بحقّ، عساهم أن ينالوا منهم، ويشوهوا أمرهم لدى الناس وخاصة لدى المغرورين المضللين المخدّرين والمهيّئين لأن يكونوا أبواقاً يرددون ما يقال لهم بتقليد وغباء، أو باتباع للهوى والشهوات.

والأمثلة التي تدل على مدى اعجابه وانبهاره بما عند الغربيين من غير احتراز، وعلى مدى تبعيّته لهم إلى مستوى الذوبان، فقد تقدم من أقواله ما يكفي لبيان ذلك.

وأما الأمثلة التي تدل على مدى تحامله وحقده على علماء المسلمين الذي يخالفونه رأيه فنذكر ما يلي:

في بداية الفصل الرابع من كتابه، وتحت عنوان: مصادر القصص القرآني. قال: والبحث عن مصادر القصص القرآني تتمثل فيه خطوتان: الأولىٰ تتمثل في رجال قد نعرفهم بسيماهم، هم أصحاب الثقافة الضحلة والعقل الضيق، والنظر القصير، هم أولئك الذين ألقت المقادير بمقاليد الثقافة العربية في أيديهم فظنوا أنهم كل شيء وما هم بشيء وأنهم أحق الناس لأن يبينوا للناس ما يصحّ وما لا يصحّ وما يجوز وما لا يجوز.

ولعله من هنا أخذتهم العزة فتحكموا في البحوث علمية وأدبية وراعوا في هذا التحكم مصلحتهم وأهواءهم ولم يراعوا مصلحة العلم والمعرفة، ولم

يراعوا جانب الحق والصواب. ومن طبع أصحاب العقول الضيقة والنظر القصير ـ إذا خولفوا في أمر من أمورهم ـ ان يستشيروا العامة ويستعينوا بالغوغاء، وهم في كل ذلك إنما يسيرون على هدى سلف لهم غير صالح، هم أولئك الجاهليون الذين كانوا يقولون لقومهم: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1] وأصحاب العقول الضيقة حين تأخذهم العزة في هذا الموقف، قد يقفون ويقولون لك: إن البحث عن مصادر القصص القرآني أمر يجب ألا يكون وتسألهم عن السرّ فيتشدّقون ويقولون: أليس القصص القرآني بعض القرآن؟ وأليس القرآن قد نزل من عند الله؟ وإذن فكيف تبيح لإنسان مهما يكن حظه من العلم والمعرفة، ومهما يكن قدره من العلو والرفعة أن يبحث عن مصادر ما أنزل الله؟ انها الفتنة فدعوها نائمة ولعن الله من أيقظها[2].

كم من سخافة في حديثه عن هذه الخطورة، وكم من غباء في استدلاله بالآية الكريمة وفي تأويله لها، لو انتبه لوجد أبعاد الآية المستشهد بها تمسه مباشرة وتتجه إليه وإلى أمثاله من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبعدون موازين القرآن عن تأويل آياته ويعوضونها بمقياس الرأي الديني اليهودي.

وهذا من (خلف الله) يصدق عليه المثل القائل: (رمتني بدائها وانسلت)[3] فعلماء الإسلام المبلغون هدي الله إلى الناس، والمدافعون عن كتابه هم في نظره الغبي احفاد الكفرة المشركين الذين حاولوا أن يلغوا في كتاب الله، عساهم ـ حسب رأيهم السفيه، وتخلفهم الفكري، وأميتهم البلهاء، أن يصلوا إلى الانتصار على محمّد عليه الصلاة والسلام ـ وإلى تغليب الباطل على الحق. ثم أن قول الحق الذي واجهوه به، وأبانوا له فيه ضآلته وضآلة أمثاله،

---

(1) سورة فصلت آية 26.

(2) الفن القصصي ص 226.

(3) (مثل يضرب ـ لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه) مجمع الأمثال للميداني ج 1 ص 193 طبع بالمطبعة الخيرية سنة 1310 هـ.

وتفاهتهم ـ وهم يتحدثون عن قصص القرآن من غير علم ولا معرفة مستمدّين من هدي القرآن الكريم والسنّة النبويّة، ومن غير بيّنة مقنعة وموثوق بها. اللهم إلا ما حسبوه لجهلهم وضلالتهم بينة مقنعة لهم من تهجمات المشركين والملاحدة ومن دسائس اليهود والنصارى ومن تآمرهم على الإسلام وكتابه الكريم. أصبح قول هؤلاء العلماء المدافعين عن الإسلام وكتابه عند (خلف الله) تشدّقاً. ناسياً أن مثل هذا التهجم الكلامي، ليس من أسلوب البحث العلمي الفني الذي يدّعيه لنفسه سفاهة.

أما هو الذي ألغى من تأويله الاعتماد على الهدي القرآني والهدي النبوي، فهو من أحفاد العلماء الاجلاء من رجال الفقه والدين ويجري على سننهم في عمله هذا ـ الفن القصصي في القرآن الكريم ـ وهذا التعبير سيأتي ذكره فيما يلي من قوله.

أليس هذا من التأويل المقلوب، ومن مسخ الحقائق وتشويهها؟. سؤال موجه لـ(خلف الله) ولأمثاله. عساهم يجيبون عنه. إما بالعناد والتمادي على الباطل وإما بالتوبة وبالرجوع إلى الحق.

ثم تمادى في توضيح رأيه غير المستقيم فقال:

أما الخطورة الثانية فتتمثل في أقوال للمستشرقين والمبشرين تدور حول مصادر القصص القرآني. وهؤلاء المبشرون يحتفلون للحديث عن هذه المصادر أكثر من احتفالهم لأية مسألة أخرى من مسائل القرآن. وسرّ هذا الاحتفال أن هذه المسألة هي الباب الذي ينفذون منه إلى الموازنة بين ما جاء في القرآن الكريم من أحداث وأخبار، وما جاء منها في التوراة والإنجيل، وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار.

والمستشرقون والمبشرون في موازناتهم ينتهون حتماً إلى القول بأن في القرآن مخالفات تاريخية وأن هذه المخالفات هي الدليل على أنه من عند محمد

لأنه لو كان من عند الله لتنزّه عن المخالفات، ولما كان فيه منها كثير أو قليل. وهم يعللون هذه المخالفات بقولهم لأقوامهم: إن محمداً كان يتعلم هذه الأخبار من العبيد والأرقاء. أولئك الأعاجم الذي يخدمون السادة من قريش والذين أشار القرآن إلى واحد منهم حين قال: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي**﴾. وهؤلاء ما كانوا يعرفون من التاريخ الديني للرسل والأنبياء الا شائعات، ذلك لأنهم بحكم رقهم أو بحكم فقرهم ما كانوا يستطيعون الحصول على نسخ من الإنجيل والتوراة وكتب الأخبار، فلم تكن المطبعة قد وجدت بعد ولم تكن النسخ المخطوطة من الكثرة بحيث تقع في أيدي هؤلاء، لقد كانت نادرة، وكان الحصول عليها يتوقف على مقدار ما يدفع في سبيلها من نقد ومن هنا كانت وقفاً على الأغنياء، ومن هنا أيضاً كانت معارف الفقراء ومعارف العبيد والأرقاء وقفاً على الشائعات، وليس يخفى إن ما كانت وسيلته المشافهة يكون دائماً عرضة للتحريف، وعرضة للتغيير والتبديل، وعرضة للزيادة والنقصان.

إن أخطاء هؤلاء فيما يقول المستشرقون والمبشرون هي التي ظهرت بوضوح في المخالفات التاريخية التي جاءت في قصص القرآن[1].

هكذا يعرض أقوال المستشرقين والمبشرين بما فيها من موازنة كل ما تحتويه كذب وافتراء، موازنة بين ما عندهم من كتب محرفة ومن تاريخ مزيف. وبين القرآن كتاب الله الذي قال عنه عزّ وجلّ ﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾[2] بين ما في القرآن من قصص ومن أخبار وأنباء ليس في مستطاع الفكر البشري. ولا في مستطاع أبحاثهم وتحقيقاتهم واستنتاجاتهم، ولا في مستطاع ما يجهدون أنفسهم فيه ويبذلونه من أجل ذلك كله من مواهب ووسائل إدراك على اختلافها أن ينالوا من صدقها، ولا أن يشككوا في معطيات أبعادها المختلفة لأنها الحق

(1) الفن القصصي ص 226 - 227.
(2) سورة الكهف آية 105.

الذي لا ريب فيه وبين ما في التوراة والإنجيل المحرفين بعد موسى وعيسى عليهما السلام ـ من زيف وباطل ومن قصص وأخبار وأنباء لا يصدقها العقل الواعي، ولا يستسيغها الذوق السليم.

قلت: هكذا يعرض أقوال المستشرقين والمبشرين بما فيها من تعريض سخيف بالقرآن الكريم من أن أخباره وأنباءه وقصصه تلقاها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأعاجم العبيد الأرقاء عند سادة قريش الأميين الذين تكون أخبارهم وأنباؤهم من قبيل الخرافات والأساطير التي لا تمت إلى الواقع وإلى العلم وإلى التاريخ الصادق بصلة، لأنهم أميون جاهلون لا علم لهم ولا معرفة، وإنهم ما كانوا يعرفون من التاريخ الديني للرسل والأنبياء إلا الشائعات.

ثم يستدل بآية قرآنية ـ وسط هذا العرض ـ وبتأويل يوهم أن القرآن يتماشى مع هذا الهراء في القول.

مع أن الآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين***﴾[1] المراد منها ردّ شبهة من شبهات منكري نبوّة ورسالة محمد ﷺ، وإبراز لسخافة قولهم بأن محمّداً يعلم من غيره ثم يؤلف القرآن من عنده، وبيان أن ما يقولونه كذب على الواقع. ومحاربة للحقّ، لأن كل الدلائل العقلية والحسّية، والذوقيّة والفنية. تدل على أن الكتاب الذي أنزل على محمد من ربّه، لا يمكن أن يكون متلقى من علم البشر مهما كان مستواهم في العلم، ولا من تأليفهم أو تأليف أفصحهم وأبلغهم مهما كانت فصاحتهم وبلاغتهم، ومهما كان ابداعهم في النظم والنسج.

﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[2].

(1) سورة النحل آية 103. (2) سورة الإسراء آية 88.

ثم أردف سبحانه وتعالىٰ ردّه وبيانه في هذه الآية بالتهديد والوعيد في الآية الموالية لها. لهؤلاء وأمثالهم الذين يحاربون الحق ويعادون محمّداً ﷺ، ويكفرون برسالته ويفترون عليه فقال: ﴿**إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم**﴾[1].

ثم ختم بيانه ببيان ثان وهو أن طبيعة الذين لا يؤمنون الكذب منبهاً إلى أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة، وتلك هي ميزة الكافرين الملاحدة فقال: ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**﴾[2].

ورغم ما أمام (خلف الله) ـ لو انتبه ـ ما يجعله يتروّى ويتثبت فيما يعرض ويقول فهو يحجب عن رؤيته كل ذلك ثم يعرض ويستدل ويغالط باستدلاله. ويوهم سذج التلقي وأغبياء المثقفين لتقبل ما قاله المستشرقون والمبشرون بكل ما فيه من هراء ومن سخافة، ومن جهل للإسلام ولرسول الإسلام وكتابه، ومن تحامل وحقد عليهم، ومن عداء للحق، ومن افتراء على العلم والمعرفة، دون ان يناقشهم القول أو أن يصفهم ولو بوصف واحد مما وصف به علماء الإسلام الذين يعرفون ما في القرآن حقّ المعرفة، ويؤولون مراد الله من آياته أحسن التأويل. من ضحالة الثقافة، وضيق العقل، وقصر النظر، ومن رجعية وجمود، وحتى الحل الذي اختاره للتغلب على الخطورتين يدل على مدى تحامله على علماء الاسلام، وعلى مدى هيامه وحبّه للمستشرقين والمبشرين وعلى مدى تبنيه لآرائهم وأحكامهم فيقول:

والخطورة الأولىٰ لا تلبث أن تزول حين يبين للرجعيين والجامدين ومن على شاكلتهم أننا في هذا الصنيع إنما نجري على سنن سلف لنا صالح هم العلماء الأجلاء من رجال الفقه والدّين[3].

---

(1) سورة النحل آية 104.

(2) سورة النحل آية 105.

(3) الفن القصصي في القرآن الكريم ص 228.

هذا نوع حلّه للخطورة الأولىٰ سبّ وشتم لعلماء الإسلام ووصفهم بالرجعية والجمود لأنهم لا يوافقونه رأيه ولا يقبلون منه شبهات المستشرقين والمبشرين حول القصص القرآني. ثم وصف نفسه بهتاناً وغروراً وهو يحاول فرض هذه الشبهات على القرآن وعلى أهله ـ بأنه يجري في صنيعه هذا على سنن السلف الصالح من رجال الفقه والدين. أي رجال يعني؟ ـ إن كان يعني علماء الفقه والدين حقاً، فهم لا يوافقونه على إلحاده في بيان مصادر القصص القرآني التي من بينها ـ كما يذهب ويقول ـ الرأي الديني اليهودي، وإن كان يعني غيرهم ممن يوافقونه رأيه، فهم ليسوا من علماء الفقه والدين لأن الفقه والدين بريئان منه ومنهم، حيث الفقه هو تبيّن الحق، والدين هو الحقّ. وأين الحق ممن يحاربه ويفتري عليه.

وبالنسبة للخطورة الثانية يقول:

والخطورة الثانية لا تلبث أن تزول حين نبيّن للناس حقيقة ما أنزل الله وحين نؤكد للمبشرين والمستشرقين أنهم أقاموا موازناتهم على أساس لم يقصد إليه القرآن الكريم، ولم يجعله غرضاً من أغراضه، وأنهم حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه قد تحكموا في الوسائل وفي النتائج العلمية، لأن المخالفات التاريخية على فرض وجودها لا يمكن أن تكون الدليل على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء.

إن موازنات المستشرقين والمبشرين بين ما جاء في القصص القرآني من أخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأخبار والتاريخ، يجب ألا تتم، ويجب ألا تكون حتى يثبت قطعاً أن القرآن الكريم قد قصد من عرض هذه الأخبار معانيها التاريخية وانه اختار ما اختار من الأشخاص والأحداث والحوار على أساس أن هذا هو الحق وأنه الذي يتمشى مع المنطق التاريخي. أما إذا كان قصد القرآن من قصصه ليس نشراً للوثائق التاريخية،

وليس تعليم التاريخ فإن صنيع المستشرقين والمبشرين لا قيمة له، ولا خطر منه[1].

فحل الخطورة الثانية في رأيه هو الاعتراف للمستشرقين والمبشرين بأن ما جاء في القصص القرآني من إشارات تاريخية ومن أخبار وأنباء لا يمثل الحق، ولا يمثل الثبت الصحيح الذي يتماشى مع المنطق التاريخي التوراتي والإنجيلي.

وبهذا الاعتراف لا يكون للشبهات التي يثيرونها حول القصص القرآني والتي تثبت وقوع أخطاء وتضارب فيها لا يقرها منطق التاريخ من حيث عناصر الزمان والمكان والأشخاص، ومن حيث الأحداث أي قيمة ولا خطر منها إلا لأنها فاقدة للقيمة والخطر بل لأن القرآن لا يعنيه صدق الأخبار والأنباء والأحداث التي يتعرض لها ويذكرها في قصصه، ولا أن تكون من حيث أشخاصها وأحداثها وحوارها مقامة على أساس من الحق، بل غاية ما يعنيه توجيه الناس إلى ما فيها من عبرة وموعظة.

ثمّ لحلّ هذه الخطورة حلاً جذرياً ينبغي الاعتراف لهم بأن الناحية التاريخية في القصص القرآني هي من الأساطير حتى نسدّ الباب الذي يأتي منه الريح، ولا يضرّ القرآن ذلك لأن مقصده من أخباره وغايته من قصصه العظة والعبرة، لا صدق الأخبار في الواقع ولا تمشيها مع المنطق التاريخي كما هو الشأن في التوراة.

إذن فهو يسلم بشبهات المستشرقين والمبشرين حول القرآن، وبأن ما في التوراة المحرفة من أخبار وأنباء يمثل الصدق والحق، ويتمشى مع المنطق التاريخي، وبأن ما في القرآن منها هو من قبيل الأساطير التي تمثل العقلية العربية الأمية زمن البعثة المحمدية.

(1) نفس المرجع ص 230.

وهذا الاعتراف الذي ذهب إليه إرضاء للمستشرقين والمبشرين، وتعلقاً وهياماً ـ يمثل الاستخذاء ـ بما يقولون، لم يقصره على نفسه بل أراد ـ تأولاً وبهتاناً وتقولاً مفترى عن قصد على أئمة التفسير من علمائنا ـ أن يشرك معه في هذا الاعتراف السخيف، كلاً من الرازي والنيسابوري فقال:

مصادر القصص القرآني في الغالب هي العقلية العربية، فالقرآن لم يبعد عنها إلا في القليل النادر، ومن هنا جاءت فكرة الأقدمين القائلة ان القرآن ليس إلا أساطير الأولين، وذلك لأنهم نظروا فوجدوا الشخصيات القصصية والأحداث القصصية مما يعرفون. ومن هنا أيضاً كان كل من الرازي والنيسابوري في غاية اللباقة والدقة في الفهم حين فرقا بين جسم القصة وهيكل الحكاية وبين ما جاء فيها من توجيهات دينية، وحين قالا بأن هذه التوجيهات في المقصد الأول من القصص القرآني، أما الجسم والهيكل فليست له قيمة كبيرة لأنه ليس المقصد والغرض، وليس هناك ما يمنع أن يكون الجسم والهيكل من أساطير الأولين. ولعلك لا زلت تذكر نص الرازي الذي وضعناه بين يديك في الفصل الأول من هذا الباب عند حديثنا عن القصة الأسطورية، فإنه النص الذي نشير إليه في هذا المقام[1].

وفي قوله: «ولعلك لا زلت تذكر نص الرازي الذي وضعناه بين يديك في الفصل الأول».

أعود إلى هذا النص لأبين ما يلي:

أولاً: من باب المغالطة وتحريف القول عرض النص ـ كما سيأتي ـ يوهم ـ وفي قوله المتقدم يصرح ـ أن الرازي يذهب إلى أن القصص ليس هناك ما يمنع أن يكون من أساطير الأولين، وهذا كذب وافتراء مقصود على الرازي.

---

(1) نفس المرجع ص 235.

فالرازي عرض شبهة النصارى الذين ينكرون قصة عيسى ـ عليه السلام ـ كما جاءت في القرآن، ثم ردّ الشبهة بما يظهر تهافتها وعدم صمودها أمام البحث العلمي القويم. والاستنتاج العقلي السليم والعطاء النقلي المسلم بصدقه وصحته.

ولكن مغالطة وتحريفاً للقول نقل عن الرازي إيراده للشبهة ولم ينقل عنه ردّه عنها فقال:

يقول الرازي عن تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**ويكلم الناس في المهد**...﴾ من سورة مريم ما يأتي «واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولة، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر، لو كان ذلك لعرفه النصارى لا سيما وهم من أشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلٰهاً، ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى مع شدّة الحبّ وكمال البحث عن أحواله، علمنا أنه لم يوجد، ولأن اليهود أظهروا عداوته حالما أظهر ادعاء النبوة، فلو أنه ـ عليه السلام ـ تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشدّ، ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم...»[1].

إلى هنا وقف في نقله ـ وهو نقل مشوه يدل على عدم التزامه بالتحري العلمي وبالنقل الأمين ـ ليوهم القارىء أن الرازي يتماشى مع ما جاء في هذه الشبهة من باطل وزيف. ولم يواصل نقله للرد عن هذه الشبهة، لأن في مواصلته ينهدم ما بناه من مغالطة ومن تحريف حيث الرازي في رده يقول: أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة، وقالوا: إن كلام عيسى ـ عليه السلام ـ في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم ـ عليها السلام ـ من الفاحشة، وكان

(1) الفن القصصي... ص 25.

الحاضرون جمعاً قليلين، فالسامعون لذلك الكلام، كان جمعاً قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضاً قد سكتوا لهذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً مخفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالىٰ محمداً ﷺ بذلك، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب: لما قرأ على النجاشي سورة مريم قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة[1].

ولنقله المشوه للفقرة التي أورد فيها الرازي شبهة النصارى مما يدل على أنه لا يتحرى النقل الأمين، لا من مصحف القرآن، ولا من كتب التفسير.

والذي يبدو أنه لا ينقل مباشرة من المصادر، وإنما يأخذ نقولاً من غيره وخاصة من المستشرقين والمبشرين المعجب بهم، والذين لا يحسنون نقل النصوص العربية بأسلوب نظمها ونسجها من مصادرها، قلت لنقله المشوه أورد الفقرة كما جاءت بنصها وعبارتها ومن تفسير الرازي ليتبين القارىء عندما يقارنها بما نقل، تشويه نقله وعدم أمانته، قال الفخر الرازي:

أنكرت النصارى كلام المسيح ـ عليه السلام ـ في المهد. واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها. ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جدّاً عند حضور الجمع العظيم فلا بدّ وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حدّ التواتر. وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حدّ التواتر ممتنع، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء ههنا ممتنعاً لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا: إنه كان إلّهاً ومن كان كذلك

---

(1) التفسير الكبير للرازي مج (7 - 8) ج 8 ص 52 - 53.

يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً، فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى بمعرفتها النصارى، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجوداً البتة[1].

ثم أورد ـ كما تقدم ـ الرد على هذه الشبهة بما يبطلها ويظهر تهافتها.

ثانياً: لم يحمل نفسه الرجوع إلى المصحف ليعرف الآية التي يستشهد بتفسير الرازي لها في أي سورة من سور القرآن ـ وهذا ليس من أسلوب البحث العلمي الذي يدعيه ـ فقال في بداية الفقرة التي تقدم ذكرها ـ : يقول الرازي عن تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**ويكلم الناس في المهد**...﴾ من سورة مريم.

فالآية ليست من سورة مريم بل هي من سورة آل عمران آية (46) وهي قوله تعالىٰ: ﴿**ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين**﴾ ولعلّ الذي أوقعه في هذا الخطأ أنه لا يرجع إلى القرآن. بل يعتمد نقول المستشرقين والمبشرين فكان نقله عنهم أنها من سورة مريم حيث تتحدث عن المسيح في المهد ولهذا فلا تكون إلا سورة مريم. وهنا أين التحري العلمي من صاحبنا؟ آية من سورة آل عمران يجعلها من سورة مريم!.

ولدعم مغالطته وتحريفه وإيهامه القارىء أردف هذا النص بنص ثان بنفس الأسلوب، وقد تعمد فيه ما تعمد في الأول من الاقتصار على ذكر الشبهة عساه يصل إلى ما أراد من الإيهام فقال:

ويقول ـ يعني الرازي ـ عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**يا هامان ابن لي صرحاً**﴾من سورة المؤمن ـ يعني سورة غافر ـ ما يلي: «المسألة الرابعة، قالت اليهود اطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً البتّة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر، فالقول بأن هامان كان موجوداً في زمان فرعون خطأ في التاريخ وليس لقائل أن يقول إن

(1) نفس المرجع ص 52.

وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجوداً في زمان فرعون ما كان شخصاً خسيساً في حضرة فرعون بل كان كالوزير له، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية. فلو كان موجوداً لعرف حاله. وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجوداً في زمان فرعون، وإنما جاء بعده بأدوار، علم أنه غلط وقع في التواريخ. قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد ﷺ فلو أن قائلاً ادعى أن أبا حنيفة كان موجوداً في زمان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضاً يسمى بأبي حنيفة فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا[1].

وكعادته انتهى نقله عن إيراد الشبهة ولم يواصل نقله لرد الرازي عنها لأن ذلك يخيب ظنه، ويفسد عنه مراده وغايته، رغم أن ردّ الرازي موجز مختصر لا يكلفه عناء النقل، لكنه دقيق قوي في ردّ الشبهة مزيل لحيرة من أوقعته في الحيرة، مسفّه لرأي اليهود، مزيف لما يقولون ويدعون.

قال الرازي في رده عن هذه الشبهة: (والجواب) أن تاريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب. فكان الآخذ بقول الله أولى بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة، فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة فظهر الفرق بين البابين[2].

وبإيرادي لهذين النصين، وبإبرازي لأسلوب التأويل الذي أراده منهما (خلف الله) قصدت بيان منهج وملامح التأويل الذي يمثل الغلو والخروج به من

---

(1) الفن القصصي... ص 25 - 26.

(2) التفسير الكبير للرازي مج (27 - 28) ج 27 ص 66.

الإطار القرآني إلى اتباع الهوى. والاستجابة للمذاهب الضالة، والتيارات الملحدة. ولتمشيه مع الهوى، ولاستجابته للمذاهب الضالة والتيارات الملحدة يعلن ـ من غير تأثم ولا خجل ـ تأييده للمستشرقين والمبشرين في طعنهم في النبي ﷺ وفي القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه لتبرير تأييده يوجه لـومه للمسلمين لأنهم مكنوهم من الطعن الذي يؤيده ويسلم به. ويعلل لومه لهم بعدم تخليهم عن فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ وبعدم قصر فهمهم على أنها لا تمثل بحقّ ـ حسب رأيه ـ إلا الفن الأدبي في مستواه العربي فقط. كما سبق أن قال. يعلن تأييده لهم من غير تأثم ولا خجل فيقول:

وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ، ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح، ولسدّوا على المشركين والمبشرين السبل، وحالوا بينهم وبين الطعن في النّبي عليه السلام وفي القرآن الكريم[1].

ثم يختم أقواله في آخر رسالته، في التواء وغموض مقصودين، بما يفيد ويستنتج منه، أنه على رأي المستشرقين والمبشرين من أن القرآن من صنع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه يمثل نفسيته في أدق مراحلها. وفي أعنف صورها.

وبهذا وصل إلى الهدف الذي يقصده ويسعى إليه، وإلى الغاية التي يرمي إليها ويجري وراءها، والتي أعلن عنها في آخر رسالته فقال: على أن أمراً آخر يبين الصلة بين هذا القصص ونفسية النّبي ـ عليه السلام ـ هو أن النبي هو الذي كان يلقيه، وليس من شكّ في أنه كان يعبر بصوته عما يصوره النص من معان وعما يحمله اللفظ من أحاسيس وعواطف، والقصص القرآني يمثل نفسية

---

(1) الفن القصصي... ص 28.

النبي، ويمثلها في أدق مراحلها وفي أعنف صورها، وليس بنا من حاجة بعدما تقدّم من شرح إلى إقامة أي دليل أو برهان[1].

ولكنه لسوء تقدير منه، ولغفلته أو تغافله عن أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد رفع الله ذكره في العالمين، وأنه أرسله للناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، لا ليصور لهم أحاسيسه وعواطفه تصويراً فنياً، وأن القرآن الكريم المنزل عليه قد تولّى الله حفظه، لم يدر لسوء تقديره ولغفلته أو تغافله أن ما أعلن عنه لا يستجيب له ولا يؤمن به إلّا أولئك الذين صدر عنهم ما أعلنه. أو الذين انخدعوا لإفكهم وانقادوا لهواهم وغرقوا في أمواج ضلالهم، وهؤلاء وأمثالهم قد حاربوا الإسلام وحاربوا كتابه بالشبهات منذ البعثة المحمّدية، ولا يزالون يحاربونهما ما دامت المعركة قائمة بين الحق والباطل، بين المؤمنين والكافرين.

﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون**﴾[2] والحرب التي يشنها أعداء الحق وأنصار الباطل على الإسلام وكتابه ونبيّه بإثارة الشبهات وبغيرها من أساليب المحاربة ـ وإن كانت مستمرة في غير هوادة ـ فمآلها الهزيمة والخسران لأنها تجد دائماً من يدفعها ويردها ويظهر زيغها من علماء الإسلام المؤمنين الصادقين الذين لا تغيب عنهم الحقيقة، ولا يحجب عنهم الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم.

---

(1) نفس المرجع ص 337.
(2) سورة التوبة آية 32.